حياة النبي صلى الله عليه وسلم

تأليف الأستاذ الدكتور

يحيى بن حمزة الوزنة السليماني

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد — القاهرة
٢٥٩٢٢٦٢٠-٢٥٩٣٨٤١١ / فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الوزنة ، يحيي بن حمزة ، حياة النبي صلي الله عليه وسلم / بقلم يحيي بن حمزة الوزنة
- ط ١ — القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠٨
٢٤٠ ص : ٢٤ سم
تدمك : ٩٧٧-٣٤١-٣٧٥-٦
ا- السيرة النبوية
أ- العنوان

ديوى : ٢٣٩

رقم الايداع : ٢٠٠٧/٢٦٧٨٧

إهداء

إلـى أُمـة محمـد صـلى الله عليـه وسـلم وهـي أفـضل امـة ذكرها الله في القرآن الكريم
هذه سيرة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم أرسله الله الـى الثقلين الجن والإنس لنشر دين الله فعلينا اتباعه وتطبيق أقواله وأعماله

اللهـم اسقنا من حوض نبيك شربة هنيـة لا نظمـأ بعدها أبدا .
وقد قـال صـلى الله عليـه وسـلم (مـن صـلى علـيّ مرة صلى الله عليه بها عشرا)

اللهـم صلي وسلم وبـارك وانعم علـى عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

والحمد لله رب العالمين

أ.د. يحي بن حمزة الوزنـة السليمـاني

١ - مولد النبي ﷺ

* * *

أظهر الله نبيه الأعظم، ورسوله الأكرم، فاختار له خير البقاع منشأ وموطنًا، وأكرم العشائر أصلاً ومعدنًا، فنشأه في مكة الطاهرة المقدسة، واجتباه من قريش فخر العرب وأعلاها شأنًا وأعزها سلطانًا وأفصحها بيانًا، وانتقاه من بني هاشم، أرجح قريش أحلامًا، وأبلغها كلامًا وأسدها حكمًا، وأكثرها حزمًا، ظهر الله سبحانه أبويه، فوالده عبد الله ألين بني هاشم جانبًا، وأرقهم حاشية، وأوفرهم سماحة، وأصفاهم خلقًا، وأودعهم طبعًا، وأسلسهم نبعًا، وأمه آمنة خير نساء قريش، وأكثرهن طهرًا، وأنفذهن بصيرة، وأنقاهن سريرة، وأظهرهن ذيلاً، وأوفاهن جمالاً وكمالاً، انتقى جلت حكمته أصول الرسول الكريم واجتباها، وبعدها عن المآثم وحلاها بشتى المكارم، فأنجبت خير البشر وأفضل مولود في الوجود.

تغيض بحيرة ساوة، وتخمد نار فارس، ويرتج إيوان كسرى، وتعزل الشياطين عن السماء، ويبطل السحر، وتنقطع الكهانة، ما هذا؟ نور يشرق على الأفلاك، وأبهر من الأفلاك، وقوة تهبط إلى الأرض، وإنسان يخرج إلى الدنيا أكبر من الإنسانية، تقشعر الأرض ويصحو الكون ويشخص الوجود. ذلك محمد، ذلك رسول الله ﷺ يغزو الوثنية في مهدها ويفيض نور رسالته في مولده، ويتمشى روحًا ويدوي حسيسًا، ويفزع أذن الكائنات وسمع الموجودات، فيظهر العدل من فارس، وتتردى العدالة من بيت ابن جدعان، ويهتف قس بن

ساعدة[1] الآيادي بسوق عكاظ[2]: «إن لله دينًا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ونبـينا قد حان حـينه، وأظلكم أوانه» إنها الرسالة تختـتم الرسالات والدين يجمع الديـانات. إنها النبوة لم يعـهد مـثلها التاريخ ولـم تشـهد مـثلها الأرض. فوقفت رحى الـدنيا لتعكس دورة الحيـاة، وأفقر مجد الأرض حـيث طفح العالم بالشر حتى لا يعرف الخير، وامتلأ بالفساد حتى لا يعرف الإصلاح، وامتلأ بالمنكر حتى لا يعرف إلا المنكر، أين ينشـد الخير وأين توجد الإنسانية؟ كل الـدنيا فساد، وكل الأرض ضلال، لا يعـرف الإنسان غير المادة ولا يؤمن إلا بالقـوة ولا يخضع إلا للظلم ولا يدين إلا للمادة، ولا يرجع إلا للحجارة، ولا يعبد إلا الأصنام.

---

(١) هو قس بن ساعدة بن عـمرو بن عدي بن مالك من بني إياد أحـد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجـاهلية، كان أسقف نجران، ويقال إنه أول عربي خطب مـتوكئًا على سيف أو عـصا، وأول من قـال في كلامه أمـا بعد، وكان يفـد على قيـصر الروم زائرًا فيكرمه ويعظمـه وهو معدود في المعمرين، طالت حـياته وأدركه النبي ﷺ قبل النبوة، ورآه في عكاظ وسئل عـنه بعد ذلك فقـال: يحشر أمـة واحدة، مـات نحو سنة ٢٣ ق هـ/ ٦٠٠م.

انظر المزيد في: البيان والتبـيين ١/ ٢٧، الأغاني ١٤/ ٤٠، الشريشي ٢/ ٢٥١، المرزباني ٣٣٨، عيون الأثر ١/ ٦٨، خزانة البغدادي ١/ ٢٦٧.

(٢) بضم أوله وآخره ظاء معجمة، قـال الليث: سمي عكاظًا عكاظًا لأن العرب كانت تجتمع فيـه فيعكظ بعـضهم بعـضًا بالفخـار أي يدعك، وعكظ فلان خصـمه باللَّدد والحـجيج عكظًا. وحكى السهيلي كانوا يتفاخـرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا ويقال عكظ الرجل صاحبه إذا فـاخره وغلبه بالمفاخرة فـسميت عكاظ بذلك، وعكاظ اسم سوق من أسواق العرب في الجـاهلية، وكانت قبـائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سـنة ويتفاخرون فـيها ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون وهي بين نخلة والطائف وذو المجاز خلف عرفة ومجنة بمر الظهران.

انظر المزيد في: معجم البلدان ٤/ ١٤١-١٤٢.

البشرية صماء، والأرض صحراء، والسماء غبراء، لا تهدأ الزوابع، ولا ترقأ الدماء، ولا تغمد السيوف إلا في الرقاب، ولا تلقى الرماح إلا على الصدور، ولا تسيل الدماء إلا من أوردة البشر، ولا تهب العواصف إلا من سنابك الخيل، ولا يطير الغبار إلا على رءوس الجحافل.. أي قوة تفرق الضلالة الحالكة؟ وأي آية تنسخ الجهالة الضارية؟ وأي بركان يهدم الوثنية المستبدة؟ وأي يد تسحق الظلم المطاع؟ يظهر محمد ﷺ فتتراجع عنه القبائل، وتخضع له العرب، ويغزو جيوش الممالك قبل أن تغزوه جيوشهم، فتهابه الملوك والقبائل، ويذعنون له، ويدخلون في دين الله أفواجًا.

ولد نبينا محمد بن عبد الله ﷺ يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل، وفاقًا لرأي مؤلفي السير. وبعد شهرين من حمله توفي والده عبد الله بالمدينة، وكانت الليلة التي ولدته أمه فيها عجيبة حقًا، رأى صويحباتها من نساء بني هاشم اللواتي مشين إليها ليلة الوضع يتوافرن على تسليتها ومساعدتها، ما أذهلهن وأدهشهن، وقد رأت آمنة أمه فيما رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرضها وما وراء بصرى وحولها من مواطن وأمطار، فلما وضعته نظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع أصبعه كالمتضرع وإذا به يمس الأرض بيديه رافعًا إلى السماء فإذا ما دعت صويحباتها إليه وإليها ليتوافرن على العناية به وبها أطلن النظر إلى بعض واجمات حائرات. ذلك أنهن وجدن الأم لا تحتاج إلى شيء من أمر النساء، وأبصرت الوليد الجديد لا يطلب شيئًا، وإذا يتناولن صبيًا ملء العين مرونة ومجدًا وجمالاً وروعة، وإذا الأرض تستقبل وليدًا جميلاً ونبيًا كريمًا.

ومكة هادئة الهواء، شديدة الحر، هادئة النفس، ما أحسن أهلها شيئًا، ولا ألقي في روعهم أمر، وإذا هم ينصرفون في صباح «الميلاد» إلى أمورهم.

ومعايشهم. وإذا عبـد المطلب قائم مقامه وحوله أبناؤه وجماعـة من قريش فيمشي إليه البشـر مسرعًا، حـتى إذا انتهى إليه بشره بالمولود الجـديد فيعود مرحًـا فرحًا، ويمضي إلى بيت آمنة فينظر إلى المولود وتحدث أمه بما رأت وسمعت وشاهدت فلا يعجب لشيء ولا ينكر أمرًا، ثم يحمل الصبي على ذراعيه إلى الكعبة فيطوف به، ثم يقوم داعيًا الله شاكرًا له ما أعطاه.

ذلك أن عبد المطلب كـان محبًا لعبد الله وولده، ولوعًـا به، فلما توفاه الله ملأ قلبـه النكد وغلبه الحزن، فلمـا رأى المولود الجديد جلا الله الحـزن عن قلبه، وحبب الصبي إلى جده، فكان من أكثـر الناس عطفًا عليه وبرًا به، ورعاية له. ثم يخرج الشيخ بحـفيده فيدفـعه إلى أمه، وهو يقول: «لقـد سميته مـحمدًا لعله أن تحمد عقباه».

وكانت بلاد العـرب لا تنعم بشيء من حضارة وحكومـة ونظم ووحدة وفي ليلة واحدة خلقت أمة وعالم جديد من هذا الفناء. ثم غلبت هذه الأمة العالم من إسبـانيا إلـى الهند. وما تزال حـتى اليوم قـوية الشأن بارزة الخطورة، فـمن الذي أخرج العرب من الفناء والعدم؟ هو نبينا محمد بن عبد الله ﷺ.

* * *

٢ - نسب النبي ﷺ

* * *

نسبه ﷺ من الشرف أعلى ذروة، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيلته، وأشرف الأفخاذ فخذه، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان.

إلى هنا معلوم الصحة متفق عليه بين النسابين ولا خلاف في أن عدنان من ولد إسماعيل - عليه السلام - وإسماعيل هو الذبيح على القول الصحيح عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

ورد في صحيح مسلم[١] عن واثلة بن الأسقع[٢] رضي الله عنه قال: قال

(١) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري أبو الحسين النيسابوري الإمام الحافظ صاحب الصحيح. روى عن قتيبة وعمرو الناقد وابن المثنى وابن يسار وأحمد ويحيى وإسحاق وخلق. وعنه الترمذي وأبو عوانة وابن صاعد وخلق. قال أحمد بن سلمة: رأيت أبا زرعة وأبا حاتم يقدمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما. وقال ابن منده: سمعت أبا علي النيسابوري يقول: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم. وقال الماسرجسي سمعت مسلم بن الحجاج يقول: صنفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة. مات في رجب سنة إحدى وستين ومائتين. قال الحاكم: له من الكتب «المسند الكبير» على الرجال ما أرى أنه سمعه منه أحد، و«الجامع على الأبواب» رأيت بعضه، و«الأسماء والكنى»، و«التمييز»، و«العلل»، و«الوحدان»، و«الأفراد»، و«الأقران»، و«حديث عمرو بن شعيب»، و«الانتفاع بأهب السباع»، و«مشايخ مالك»، و«الثوري»، و«شعبة»، و«المخضرمون»، و«أولاد الصحابة»، و«الطبقات»، و«أفراد الشاميين»، و«أوهام المحدثين»، و«سؤالات أحمد بن حنبل». =

رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار».

* * *

= انظر المزيد في: الجرح والتعديل ٨/ ١٨٢، الفهرست ٢٨٦، الإرشاد ٣/ ٨٢٥، تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٠، طبقات الحنابلة ١/ ٣٣٧، الأنساب ورقة ٤٥٣ب، المنتظم ٥/ ٣٢، اللباب ٣/ ٣٨، تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٨٩، وفيات الأعيان ٥/ ١٩٤، تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٨٨، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٥٧، العبر ٢/ ٢٣، البداية والنهاية ١١/ ٣٣، تهذيب التهذيب ١٠/ ١٢٦، النجوم الزاهرة ٣/ ٣٣، خلاصة تهذيب الكمال ٣٧٥، شذرات الذهب ٢/ ١٤٤، الرسالة المستطرفة ١١.

(٢) هو واثلة بن الأسقع بن عبد العزى بن عبد ياليل الليثي الكناني، صحابي من أهل الصفة، كان قبل إسلامه ينزل ناحية المدينة ودخل المسجد بالمدينة والنبي ﷺ يصلي الصبح، فصلى معه. وكان من عادة النبي ﷺ إذا انصرف من صلاة الصبح تصفح وجوه أصحابه، ينظر إليهم، فلما دنا من واثلة أنكره، فقال: من أنت؟ فأخبره. فقال: ما جاء بك؟ قال: أبايع، فقال: على ما أحبب وكرهت؟ قال: نعم. قال: فيما أطقت؟ قال: نعم. وكان رسول الله ﷺ يتجهز إلى تبوك، فشهدها معه، وقيل خدم النبي ﷺ ثلاث سنين. ثم نزل البصرة وكانت بها دار. وشهد فتح دمشق وسكن قرية «البلاط» على ثلاثة فراسخ منها وحضر المغازي في البلاد الشامية وتحول إلى بيت المقدس فأقام ويقال: كان مسكنه ببيت جبرين وكف بصره وعاش ١٠٥ سنة وقيل ٩٨ سنة وهو آخر الصحابة موتًا أي سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م وكان مولده سنة ٢٢ ق هـ/ ٦٠١م. له ٧٦ حديثًا ووفاته بالقدس أو بدمشق.

انظر المزيد في: تهذيب التهذيب ١١/ ١٠١، أسد الغابة ٥/ ٧٧، الإصابة ت٩٠٨٩، صفة الصفوة ١/ ٢٧٩، حلية الأولياء ٢/ ٢١، الكامل في التاريخ ٤/ ١٩١، خزانة البغدادي ٣/ ٣٤٣، مرآة الجنان ١/ ١٧٥، شرح ألفية العراقي ٣/ ٤٠.

٣ - نسبه الشريف من جهة أمه وزواجها بأبيه

***

وأما نسبه الشريف من جهة أمه فهو محمد ﷺ ابن آمنة الزهرية، نسبة إلى بني زهرة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، يجتمع نسب أبيه ونسب أمه في كلاب الجد الخامس لرسول الله ﷺ. وقد كان أبوه عبد الله أحب الأبناء لدى جده، ولما بلغ الثلاثين من عمره خرج به أبوه عبد المطلب إلى وهب ابن عبد مناف بن زهرة، وهو يومئذ سيدها شرفًا وأعلاها نسبًا، فخطب السيدة آمنة لابنه عبد الله، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا لمكانة أبيها ولكمال أخلاقها وآدابها. فزوجه إياها وكان ذلك في يوم الإثنين من شهر رجب فحملت برسول الله ﷺ ليلة دخوله بها، وكانت قريش في جدب عظيم وضيق شديد، فاخضرت الأرض وأزهرت الأشجار وأثمر النخيل، فسميت هذه السنة سنة الفتح والابتهاج للرغد والخير الذي أصاب قريشًا من كل جانب.

***

٤ - رضاعة النبي ﷺ

كان من عادة العرب أن تتلمس لأطفالها الرضعاء من بين نساء البادية، وكن يأتين إلى مكة بين الحين والحين يبحثن عن الرضعاء من أبناء الأغنياء المترفين، يبتغين فضلاً من مال ووابلاً من بر ونعيم، فخرجت حليمة السعدية من البادية إلى مكة عام ولادة النبي ﷺ مع نسوة من بني سعد بن بكر[1]، حسبما جرت به العادة، وكانت السنة سديدة مجدبة فعرض النبي ﷺ على النسوة فأبينه إذ قيل لهن أنه يتيم، وذلك أنهن إنما كن يرجون المعروف من والد الصبي، فإن تولى فلا أمل لهن في شيء من النعمة أو حظ من البر.

فما بقيت امرأة من النسوة إلا وقد توفر لها رضيع حملته معها إلا حليمة فإنها لم تجد، فلما أزمع القوم على الرحيل، قالت حليمة لبعلها وهي تحاوره: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي لم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلأخذنه، فأجاب بعلها افعلي ما تشائين عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. فذهبت حليمة فأخذته، وما حملها على أخذه إلا أنها لم تجد سواه. ورجعت به إلى زوجها تسعى، فلما وضعته في حجرها أقبل على ثدييها فشرب حتى روي

---

(١) هو سعد بن بكر بن هوازن من عدنان جدّ جاهلي، امتاز بنوه بالفصاحة، وفيهم نشأ النبي ﷺ في طفولته، إذ تسلمته حليمة «السعدية» بعد وفاة أمه وحملته إلى المدينة وأحسنت تربيته، ولما ردته إلى مكة نظر إليه عبد المطلب فامتلأ سرورًا، وقال: جمال قريش وفصاحة «سعد» وحلاوة يثرب. وكانت منازل بني سعد بن بكر في الحديبية وأطرافها وهم الآن بطون يسكنون بالقرب من الطائف، ومنهم بنو جُودَيٍّ كانوا في البيرة Elvirs بالأندلس.

انظر المزيد في: ثمار القلوب ٢١، نهاية الأرب ٢٤٠، جمهرة أنساب العرب ٢٥٣، معجم قبائل العرب ٢/ ٥١٣.

فحولته إلى ثديها الأيسر فأعرض عنه، إلـهامًا من الله تعالى ألهمه العدل حتى في الرضاع فتركه لأخيه ثم نام، وقام زوجها إلى ناقته فإذا بها حافل ممتلئة فحلب منها وشرب وشربت زوجته حليمة معه حتى امتـلا ريًا وشبعًا فباتا بخير ليلة، وزوجها يقول: تعلمين والله يا حليـمة لقد أخذت نسـمة مباركة بتـحملك هذا الطفل، ثم قدم الزوجـان منازلهما في بلاد بنـي سعد وما يـعلمان أرضًا أجـدب منها فكانت غنمهما تروح وتغدو شباعًا فيحلبان لبنًا ويشربان. وعاشا في خير وبركة، مما جعل حليمـة لما ردته إلى أمه بعـد سنتين أن تسألـها أن تترك الصبي عندها حتى يـنمو ويشتد، فحاولت أمه الممانعة فكررت حليمة الطلب حتى رضيت أمه بذلك.

ويروى أن هناك نسوة غيـر حليمة أرضعنه ﷺ فمنهن ثوبية الأسـلمية مولاة أبي لهب، أرضعتـه أيامًا وأرضعت معـه عبد الله بن عبد الأشـهل المخزومي بلبن ابنها مسروح وأرضعت معهما عمه حمزة بن عبد المطلب[1].

---

(١) هو حمزة بـن عبد المطلب بن هاشم أبو عمـارة من قريش عم النبي ﷺ وأحد صناديد قريش وسادتهم فـي الجاهلية والإسلام. ولد سنة ٥٤ ق هـ/ ٥٥٦م ونشـأ بمكة وكان أعز قريش وأشـدها شكيمة. ولما ظهر الإسـلام تردد في اعتناقه ثم علم أن أبا جـهل تعرض للنبي ﷺ ونال منه، فقـصده حمـزه وضربه وأظهـر إسلامه فـقالت العرب: اليوم عزّ محمـد وإن حمزة سيـمنعه وكفوا عن بعض مـا كانوا يسيئـون به إلى المسلمين. وهاجر حمزة مع النبي ﷺ إلى المدينة، وحضر وقعة بدر وغيرها. قال المدائني: أول لواء عقده رسول الله ﷺ كان لحـمزة. وكان شـعار حمـزة في الحرب ريشة نعـامة يضعـها على صدره، ولما كان يوم بدر قاتل بـسيفين وفعل الأفاعيل وقتل يوم أُحـد فدفنه المسلمون في المدينة سنة ٣ هـ/ ٦٢٥م وانقرض عقبه.

انظر المزيد في: صفة الصفوة ١/ ١٤٤، تاريخ الخميس ١/ ١٦٤، تاريخ الإسلام ١/ ٩٩، الروض الأنف ١/ ١٨٥، ثم ٢/ ١٣١.

وأرضعت معه حليمة السعدية ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان شديد العداوة لرسول الله ﷺ. ثم أسلم عام الفتح وحسن إسلامه، وكان عمه حمزة مسترضعًا في بني سعد بن بكر فأرضعته أمه رسول الله ﷺ من جهة ثوبية ورضيع السعدية من جهة، ومما هو جدير بالذكر أنه قد ظهرت آثار البركة وآيات النبوة عليه ﷺ وهو عند مرضعته حليمة السعدية.

قال ابن إسحاق[1]: قالت حليمة السعدية: قدمت مكة في نسوة من بني سعد وكن عشر نسوة تلتمس الرضعاء في سنة شهباء مجدبة فقدمت على أتان لي (حماره) كانت آذت بالركب لقلة مشيها، ثم أخذت تذكر قصتها إلى أن قالت: ثم خرجت راجعة إلى بلادي فوالله لقد قطعت أتاني الركب حتى ما يتعلق بها حمار حتى أن صويحباتها ليقلن ويلك يا بنت أبي ذؤيب هذه أتانك التي خرجت عليها معنا، فأقول نعم، والله إنها لهي فيقلن والله إن لها.

---

(١) هو محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي القرشي المطلبي مولاهم. احد الأئمة. روى عن أبيه وأبان بن عثمان وأبان بن صالح وجعفر الصادق والزهري وعطاء ونافع ومكحول وخلق. وعنه شعبة ويحيى الأنصاري وهما شيوخه وشريك والحمادان والسفيانان وزياد البكائي وآخرون. وثقه ابن معين مرة وضعفه أخرى. وقال ابن المديني: صالح واسط وقال أحمد: حسن الحديث. وقال الشافعي: من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق، وأكثر ما عيب به التدليس. مات سنة ١٥٥هـ وقيل سنة ١٥١هـ.

انظر المزيد في: طبقات ابن سعد ٧/ ٣٢١، طبقات خليفة ٢٧١، تاريخ خليفة ١٦ و٤٢٦، التاريخ الكبير ١/ ٤٠، التاريخ الصغير ٢/ ١١١، المعارف ٤٩١، المعرفة والتاريخ ٢/ ٢٧، الجرح والتعديل ٧/ ١٩١، مشاهير علماء الأمصار ١٣٩، الأرشاد في علماء البلاد ١/ ٢٨٨، تاريخ بغداد ١/ ٢١٤، إرشاد الأريب ٦/ ٣٩٩، وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٦، تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٢، سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٣، العبر ١/ ٢١٦، ميزان الأعتدال ٣/ ٤٦٨، الوافي بالوفيات ٢/ ١٨٨، تهذيب التهذيب ٩/ ٣٨، لسان الميزان ٦/ ٦٨٢، خلاصة تهذيب الكمال ٢٣٦، شذرات الذهب ١/ ٢٣٠.

٥ - إخوته ﷺ من الرضاع

* * *

وللرسول إخوة من الرضاع هم: حمزة بن عبد المطلب رضع معه من ثويبة، وعبد الله بن الحارث وأنيسة أخته وجذامة الشيماء أختهما، وهي التي أتى بها النبي ﷺ في أسرى حنين[١] فبسط لها رداءه ووهب لها أسرى قومها. وأما إخوته من سليم فهن: عاتكة بنت هلال، وعاتكة بنت الأوقص بن هلال، وعاتكة بنت فالح، ويقال لهن العواتك، وهؤلاء الأخوة الستة أخوته ﷺ من جهة السيدة حليمة.

* * *

(١) وهو قريب من مكة وقيل هو وادي قبل الطائف وقبل واد بجنب ذي المجاز، وقال الواقدي: بينه وبين مكة ثلاث ليال وقيل بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً.
انظر المزيد في: معجم البلدان ٢/ ٣١٣.

٦ - حواضنه ﷺ

***

منهن أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، ثم ثويبة وحليمة والشيماء ابنتها وهي أخته من الرضاعة وكانت تحضنه مع أمها، وهي التي قدمت عليه مع وفد هوازن فبسط لها رداءه وأجلسها عليه رعاية لحقها. ومنهن الفاضلة الجليلة أم أيمن بركة الحبشية لم تكد تراه ﷺ وهو طفل يسقط على الأرض ساجداً حتى ألقى الله حبه في قلبها، عطفًا عليه وشغفًا به، ثم إذا هي تحضن الطفل وتحنو عليه، وإذا هي تغمره بصنوف من الحنان والمحبة والبر، ما تحويها غير قلوب النساء، فإذا ما أخذته المرضع إلى البادية، أسقط في يدها، وتولاها من الحزن شيء كثير، فإذا ما عاد الطفل إلى مكة، وتوفيت أمه بعد ذلك خلص اليتيم إلى الحاضنة من دون الناس. فوقفت نفسها عليه، واحتضنته بحبها وحنانها كله.. وهي أمة حبشية ورثها من أبيه «الذود خمسة من الإبل» هذه الحاضنة ما عرفت الحنان والحب والعطف إلا في هذا الطفل، ولا تفهمت ما فيها من المعاني الرائعة إلا حين رأت اليتيم واحتضنت به.

ويسير الزمن سيرته، لا تفارق الحاضنة فتاها، حتى إذا بلغ ﷺ سن الرجال، واتخذ له أسرة وآوى إلى زوجه خديجة.. أعتق الرسول حاضنته ورد إليها حريتها. فتزوجت رجلاً من أهل المدينة، حتى إذا توفاه الله عادت إلى منزل نبينا محمد ومعها ابنها الثاني (أيمن بن عبيد) فعاش في كنف الرسول حتى أتم الله له نعمته عليه وبعثه هاديًا ورسولاً. فلا يشغله هنا عن أمه وحاضنته فإذا ما رآها أرسل هذه الكلمة العذبة الرائعة التي ملؤها الإخلاص وحفظ الجميل: «إنها بقية أهل بيتي».

هذه أم أيمن حاضنة نبينا وبقية أهل بيته وسيدة من سيدات المسلمين، وكانت قابلته وزوجها من حبه زيد بن حارثة(١) فولدت له أسامة(٢).

دخل عليها أبو بكر(٣) وعمر(٤) بعد موت النبي ﷺ وهي تبكي، فقال لها:

---

(١) هو زيد بن حارثة بن شراحيل (أو شرحبيل) الكعبي صحابي اختطف في الجاهلية صغيراً واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبي ﷺ حين تزوجها، فتبناه النبي ﷺ قبل الإسلام، وأعتقه وزوجه بنت عمته، واستمر الناس يسمونه «زيد بن محمد» حتى نزلت آية ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ... ⑤﴾ [الأحزاب]، وهو أقدم الصحابة إسلامًا وكان النبي ﷺ لا يبعثه في سرية إلا أمَّره عليها. وكان يحبه ويقدمه. وجعل له الإمارة في غزوة مؤتة فاستشهد فيها سنة ٨هـ/ ٦٢٩م.

انظر المزيد في: الإصابة ١/ ٥٦٣، صفة الصفوة ١/ ١٤٧، خزانة البغدادي ١/ ٣٦٣، الروض الأنف ١/ ١٦٤.

(٢) هو أسامة بن زيد بن حارثة من كنانة عوف أبو محمد صحابي جليل ولد بمكة سنة ٧ق هـ/ ٦١٥م ونشأ على الإسلام «لأن أباه كان من أول الناس إسلامًا» وكان رسول الله ﷺ يحبه حبًا جمًا وينظر إليه نظره إلى سبطيه الحسن والحسين. وهاجر مع النبي ﷺ إلى المدينة وأمَّره رسول الله ﷺ قبل أن يبلغ العشرين من عمره، فكان مظفراً موفقًا. ولما توفي رسول الله ﷺ رحل أسامة إلى وادي القرى فسكنه، ثم انتقل إلى دمشق في أيام معاوية فسكن المزة وعاد بعد إلى المدينة فأقام إلى أن مات بالجرف في آخر خلافة معاوية سنة ٥٤هـ/ ٦٧٤م، روى له البخاري ومسلم ١٢٨ حديثًا، وفي تاريخ ابن عساكر أن رسول الله ﷺ استعمل أسامة على جيش فيه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

انظر للمزيد في: طبقات ابن سعد ٤/ ٤٢، تهذيب ابن عساكر ٢/ ٣٩١-٣٩٩، الإصابة ١/ ٢٩.

(٣) هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه أفضل الأمة وخليفة رسول الله ﷺ ومؤنسه في الغار وصديقه الأكبر ووزيره الاحزم عبد الله بن أبي قحافة القرشي التيمي، كان أول من احتاط في قبول الاخبار فروى ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورث فقال: ما أجد لك في كتاب الله شيئًا وما علمت أن رسول الله=

يا أم أيمن ما يبكيك، فما عند الله خيـر لرسوله؟ قالت: إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله، وإنما أبكي لانقطاع خبر السماء، فهيجته على البكاء فبكيا معًا.

قال الله سبحـانه وتعالى في كتـابه الكريم: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح].

* * *

=ﷺ ذكر لك شيئًا، ثم سـأل الناس فقام المغيرة فقال: حضـرت رسول الله ﷺ يعطيها السدس فقـال: هل معك أحد؟ فشـهد محمـد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفـذه لها أبو بكر رضي الله عنه. ومن مـراسيل ابن أبي مليـكة أن الصديق جـمع الناس بعد وفـاة نبيـهم فقـال: إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحـاديث تختلفون فـيها، والناس بعـدكم أشد اختلافًا، فلا تحدثوا عن رسول الله ﷺ شيئًـا فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حـلال وحرموا حرامه. وهذا المرسل يدل أن مراد أبي بكر التـثبت في الأخبار والتـحري لا سـد باب الرواية، يدل على ذلـك أنه لما نزل به أمر الجـدة ولم يجـده في الكتاب سأل عنه في السنة. فلما أخبره الثقة مـا اكتفى حتى استظهر بثقة آخر، ولم يقل حسبنا كتاب الله كما تقول الخوارج. توفي سنة ثلاث عشرة وله ثلاث وستون سنة.

انظر المزيد في: أسد الغـابة ٣/ ٣٠٩، تاريخ الخلفاء ٢٧، تذكرة الحـفاظ ١/ ٢، شذرات الذهب ١/ ٢٧، طبقات الفقهاء ٣٦، العبر ١/ ١٦، مروج الذهب ٢/ ٣٠٥.

(٤) هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أبو حفص العدوي الفاروق وزير رسول الله ﷺ، ومن أيد الله به الإسـلام وفـتح به الأمـصـار وهو الصـادق المحدث الملهم، وهو الذي سن للمحدثين التثـبت في النقل، وربما كان يتوقف في خبر الواحد إذا ارتاب. استـشهد أمير المؤمنين عمر في أواخر ذي الحجة في سنة ثلاث وعشرين وعاش نحواً من ستين سنة.

انظر المزيد في: أسـد الغـابة ٤/ ١٤٥، الإصابة ٢/ ٥١١، تاريـخ الخلفاء ١٠٨، تذكـرة الحفاظ ١/ ٥، خـلاصة تذهيب الكمال ٢٣٩، شذرات الذهب ٣٨، طبـقات القراء لابن الجزري ١/ ٥٩١، العبر ١/ ٢٧، مروج الذهب ٢/ ٣١٢، النجوم الزاهرة ١/ ٧٨.

٧ - حادثة شق صدره الشريف ﷺ

***

وحصلت له ﷺ حادثة مهمة وهي شق صدره، وإخراج حظ الشيطان منه، فأحدث ذلك عند حليمة خوفًا، فردته إلى أمه، وحدثتها قائلة: بينما هو وإخوته في بهم لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقا بطنه، فهما يسوطانه (يحركانه بسوط) فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه ممتقعًا لونه (مربدًا متغيرًا) فالتزمته أبوه. فقلنا له: ما لك يا بني؟

فقال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم. فأقبلا يبتدراني فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئًا، فأخذاه وطرحاه ثم رداه كما كان فرجعناه معنا، فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقي بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر ما نتخوف منه فاحتملنا حتى قدمنا به مكة على أمه فقالت: ما ردكما به، فقد كنتما حريصين عليه؟ فأخبراها خبره، فقالت: والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابني هذا شأن، فدعاه عنكما.

وعن شداد بن أوس[١] أن رسول الله ﷺ قال: كنت مسترضعًا في بني سعد

(١) هو شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري أبو يعلى صحابي من الأمراء ولاه عمر رضي الله عنه إمارة حمص. ولما قتل عثمان رضي الله عنه اعتزل وعكف على العبادة. كان فصيحًا حليمًا حكيمًا. قال أبو الدرداء: لكل أمة فقيه، وفقيه هذه الأمة شداد بن أوس. توفي في القدس عن ٧٥ سنة أي سنة ٥٨هـ/٦٧٧م وله في الصحيحين ٥٠ حديثًا.

بن بكر فبينما أنا ذات يوم في بهم لهم ومـعي أتراب لي من الصبيان، إذ أنا برهط ثلاثة معهم طست من ذهب مليء ثلجًا فأخذوني من بين أصحابي وانطلق الصبيان هربًا مسرعين إلى الحي فـعمد أحدهم فأضـجعني على الأرض اضجاعـًا لطيفًا ثم شق ما بين مفـرق صدري إلى منتهى عانتي وأنا أنظر إليه فلم أجـد لذلك مسًا ثم أخرج أحشاء بطني ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها، ثم أعادها مكانها، ثم قام الثاني فـقال لصاحـبه: تنح. ثم أدخل يده في جوفي وأخـرج منه قلبي وأنا أنظر إليه، ثم أخرج مـنه مضغة سوداء فـرمى بها، ثم مال بيده يمنة ويســرة كأنه يتناول شيئًا، فإذا بخاتم في يده من نور يحار الناظر دونه، فختم به قلبي فامتلأ نوراً، ثم أعاده مكانه فـوجدت برد ذلك الخـاتم في قلبي دهراً، ثم قال الثـالث لصاحـبه: تنح. فمر بيده بين مفرق صدري إلـى منتهى عانتي فالتأم ذلك الشق، ثم أنهضني وقال للأول: زنه بعشرة من أمته فوزنني بهم فرجحتهم. ثم قال: زنه بمائة من أمته فرجحتهم. ثم قـال: زنه بألف فرجحتهم. فقال: دعوه، فلو وزنتـموه بأمته كلها لرجحـهم، ثم ضموني إلى صـدورهم وقبلوا رأسي وما بين عـيني. ثم قالوا: يا حبيب لم ترع، إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت عيناك.

***

= انظر المزيد في: الإصـابة ت ٣٨٤٢، تهـذيب التـهـذيب ٤/ ٣١٥، صـفة الصـفـوة ١/ ٢٩٦، حلية الأولياء ١/ ٢٦٤.

٨ - ختان الرسول ﷺ

***

اختلف فيه على ثلاثة أقوال:

القول الأول: إنه ولد ﷺ مختونًا مسرورًا، أي مقطوع السرة. وروي في ذلك حديث لا يصح، ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، ولين فيه حديث ثابت، وليس هذا من خواصه ﷺ فإن كثيرًا من الناس يولد مختونًا.

القول الثاني: إنه ختن يوم شقت قلبه الملائكة عند حليمة.

القول الثالث: إن جده عبد المطلب ختنه يوم سابع ولادته ﷺ، وأولم وأطعم وسماه محمدًا.

قال أبو عمر بن عبد البر[١]: في هذا الباب حديث سنده غريب، وقد

(١) هو ابن عبد البر الحافظ الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي. ولد سنة ثمان وستين وثلاثمائة في ربيع الآخر، وطلب الحديث قبل مولد الخطيب البغدادي بأعوام، وأجاز له من مصر الحافظ عبد الغني، وساد أهل الزمان في الحفظ والإتقان. قال الباجي أبو الوليد: لم يكن بالأندلس مثله في الحديث. له «التمهيد» شرح الموطأ و«الاستذكار» مختصره و«الاستيعاب» في الصحابة، و«فضل العلم» و«التقصي على الموطأ» و«قبائل الرواة» و«الشواهد في إثبات خبر الواحد»، و«الكنى» و«المغازي» و«الأنساب» وغير ذلك.

قال الغساني سمعته يقول: لم يكن أحد ببلدنا مثل قاسم بن محمد وأحمد بن خالد الحباب. قال الغساني: ولم يكن أبو عمر بدونهما ولا متخلفًا عنهما. وانتهى إليه مع إمامته علو الإسناد وولي قضاء اشبونة مدة، وكان أولاً ظاهريًا ثم صار مالكيًا، فقيهًا حافظًا مكثرًا عالمًا بالقراءات والحديث والرجال، والخلاف كثير الميل إلى أقوال الشافعي. مات ليلة الجمعة سلخ ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وأربعمائة عن خمس وتسعين سنة. =

وقـعت هذه المسألة بين رجلـين فاضلين صنف أحـدهمـا مصنفًـا في أنه ولد ﷺ مختونًا وجلب فيه من الأحـاديث التي لا خطام لها ولا زمام وهو كمال الدين بن طلحة فنقضــه عليه كمال الدين بن العديم، وبين فيـه أنه ختن على عادة العرب، وكان عمـوم هذه السنة للعرب قاطبة. قلت ويخالف هذا مـا رواه البخاري(١) من

= انظر المزيد في: جـمهـرة أنساب العرب ٢ ٣٠٢، جـذوة المقتـبس ٣٦٧، ترتيب المدارك ٤/ ٨٠٨، فهرست ابن خير ٢١٤، الصلة ٢/ ٦٧٧، وفيات الاعيان ٧/ ٦٦، المختصر في أخبـار البشر ٢/ ١٨٧، تذكـرة الحفـاظ ٣/ ١١٢٨، دول الإسلام ١/ ٢٧٣، سيـر أعلام النبلاء ١٨/ ١٥٣، العبر ٣/ ٣٥٥، المشتبـه ١/ ١١٧، تتمة المختصر ١/ ٥٦٤، مرآة الجنان ٣/ ٨٩، البداية والنهاية ١٢/ ١٠٤، الديباج المذهب ٢/ ٣٦٧، شذرات الذهب ٣/ ٣١٤، تاج العـروس ٣/ ٥٨٦، روضـات الجنات ٤/ ٢٣٩، هدية العـارفين ٢/ ٥٥٠، الرسـالة المستطرفة ١٥، شجرة النور الزكية ١/ ١١٩.

(١) هو البخـاري أبو عـبد الله محـمد بن إسمـاعيل بن إبراهيم بن المغـيرة الجُعْـفي مولاهم الحافـظ العلم صاحب «الصـحيح» وإمـام هذا الشأن والمعـول على صحـيحـه من أقطار البلدان. روى عن الإمام أحمد وإبراهيم بن المنذر وابن المدينـي وآدم بن أبي إياس وقتيبة وخلق. وعنه مـسلم والتـرمذي وإبراهيم الحـربي وابن أبي الدنيـا وأبو حاتم والمحـاملي والفربري وخلق آخرهم وفاة ورواية للصحيح أبو طلحة منصور بن محمد النسفي. وقال الفربري قـال البخاري: مـا وضعت في كتـابي الصحيح حـديثًا إلا اغتـسلت قبل ذلك وصليت ركعتين.

وقال بندار: حفاظ الدنيا أربعة: أبو زرعـة بالري، ومسلم بنيسابور، والدارمي بسمرقند، والبخـاري ببخارى. وقال ابـن عدي: كان ابن صاعـد إذا ذكر البخـاري يقول: الكبش النطاح. وللبـخاري من المؤلفات «الجـامع الصحيح» و«التـاريخ الكبيـر» و«الادب المفرد» و«القراءة خلف الإمام» و«رفع اليدين» ولد يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة ومات ليلة عيد الفطر سنة ستة وخمسين ومائتين.

انظر المزيد في: الجرح والتـعديل ٧/ ١٩١، الإرشاد في معرفـة علماء الحديث ٣/ ٩٥٨، ثقات ابن حـبان ٩/ ١١٣، الفـهرست ١/ ٥٢١، تاريخ بغداد ٢/ ٤، طبـقات العـبادي=

أن أسقف أيليا لما أصبح خبيث النفس ثم وجد أن ملك الختان ظهر في السماء يدل على أن الختان لم يكن عادة العرب ولا موجوداً قبل مولده. ولم يصح أنه ختن نفسه، وذلك يؤيد أنه عليه الصلاة والسلام نزل مختونًا.

* * *

=٥٣، طبقات الحنابلة ١/ ٢٧١، الأنساب ٢/ ١٠٠، اللباب ١/ ١٢٥، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٦٧، وفيات الأعيان ٤/ ١٨٨، تهذيب الكمال ٢٤/ ٤٣٠، تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٥٥، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٩١، العبر ٢/ ١٢، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٠٦، مرآة الجنان ٢/ ١٦٧، طبقات السبكي ٢/ ٢١٢، البداية والنهاية ١١/ ٢٤، تهذيب التهذيب ٩/ ٤٧، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٥، خلاصة تذهيب الكمال ٣٢٧، طبقات المفسرين للداودي ٢/ ١٠٠، مفتاح السعادة ٢/ ١٣٠، شذرات الذهب ٢/ ١٣٤، هدية العارفين ٢/ ١٦، الرسالة المستطرفة ١٠.

٩ - عودته لأمه بعد تمام الرضاعة ﷺ

ولما عاد إلى أمه أقام معها بمكة قد كلاه الله بعنايته رأنبته نباتًا حسنًا لما أراده من كرامته، ولما بلغ النبي ﷺ أربع سنين خرجت به أمه إلى المدينة لزيارة أخوال جده عبد المطلب بني عدي بن النجار، ونزلوا في دار التابعة إحدى دور بني النجار بالمدينة، وحدث رسول الله ﷺ عن ذلك بعد رسالته فقال مشيراً إلى دار (التابعة) ونظر إلى الدار وقال: «ها هنا نزلت بي أمي وأحسنت العوم في (بئر) بني عدي ابن النجار، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إلي»، قالت أم أيمن بركة الحبشية، وكانت معهما لأنها حاضنته ﷺ: «فسمعت أحدهم يقول هو نبي هذه الأمة وهذه دار هجرته»، فوعيت ذلك كله من كلامهم. وكانت إقامة السيدة آمنة وولدها ﷺ وحاضنته بالمدينة شهراً. وفي عودتهم إلى مكة المكرمة وافاها أجلها في الطريق ودفنت بالأبواء (مكان بين مكة والمدينة)، وقيل إنها دفنت بالمعلى. قال بعضهم اشتهر في الناس أخيراً أنها نقلت من الأبواء إلى هذا رحمها الله ورضي عنها، وقد روت أسماء بنت رهم عن أمها قالت: شهدت آمنة أم النبي ﷺ في علتها التي ماتت بها ومحمد ﷺ غلام يفع له خمس سنين عند رأسها فنظرت إلى وجهه وقالت:

بارك فيك الله من غلام ... يابن الذي نجا من الحمام[1]
نجا بعون الملك العلام ... فودى غداة الضرب بالسهام
بمائة من إبل سوام ... إن صح ما أبصرت في المنام[2]

---

(١) وردت في الأصل الحبام.

(٢) وردت في الأصل النوم.

فأنت مبعــوث إلى الأنــام · تبعــث في الحل وفي الحرام
تبعث في التحقيق والإعلام · دين أبيــك البر إبــراهام[1]
فالله أناك عــن الأصـــنام · ألا تواليـــها مع الإحـــرام

ثم قـالت: كل حي ميت، وكل جـديد بال، وكل كثـير يفنى، وأنـا ميـتة وذكري باق، وقد تركت خيراً وولدتِ طهراً. ثم ماتت رضي الله عنها.

* * *

(١) إضافة من طبقات ابن سعد.

١٠ - أعمامه وعماته ﷺ

أما أعمامه ﷺ فقد عد الرواة والمؤرخون منهم إثنى عشر، هم: الحارث بن عبد المطلب، وأبو طالب واسمه عبد مناف، والزبير، وضرار، وحجل واسمه المغيرة، والمقوم وعبد الكعبة، وأبو لهب واسمه عبد العزى، وقثم والغيداق والعباس بن عبد المطلب وحمزة.

وأما عماته فهن ست: عاتكة وأم حكيم وتسمى بضاعة، وبرة وأميمة وأروى وصفية.

وكان عبد الله والد النبي ﷺ وأبو طالب والمقوم وعبد الكعبة والزبير وبضاعة وأروى وبرة وعاتكة أشقاء وأمهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم.

وكان حمزة وحجل وصفية أشقاء وأمهم هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة.

وكان العباس وضرار وقثم أشقاء وأمهم نتيلة بنت جناب بن كليب بن النمر ابن قاسط.

وكان الحارث فرداً وأمه صفية بنت جندب بن حجير بن رئاب بن حبيب.
وكان أبو لهب والغيداق أشقاء وأمهم لبنى بنت هاجر بن خزاعة.

* * *

١٢ - وفاة عبد المطلب جدّ النبي ﷺ

* * *

أصبح عبد المطلب جد الرسول ﷺ ذات يوم تعبًا مثقلاً، ويشعر في قرارة نفسه أنه ميت وأنه مفارق الدنيا، فدعا بناته وطلب إليهن أن يبكينه كما يبكي الناس الموتى، وألح عليهن في ذلك إلحاحًا شديداً ففعلن على كره، وبكين حقًا إذ أحسن أن والدهن مفارقهن والنبي قائم أمام فراش الشيخ - جده، يرى ويسمع ويمتلئ قلبه بما يرى ويسمع فتنهال من عينيه دموع ويضطرب في قلبه إشفاق كثير.

لله من دموع اليتيم ما أحرها وأشدها، هذا اليتيم ما يعرف أباه وما اكتحلت عيناه بمرأى أمه إلا قليلاً، فإذا ما كفله جده وراح يبر به ويعطف عليه، أخذه الموت من بين يديه، كأنما الأقدار ترسم لهذا الفتى أن يكون يتيمًا حقًا ما تضطرب حوله عاطفة، وهو في ذلك ضعيف ما يملك للأقدار ردًا ولا يستطيع لها دفعًا.

وكذلك يموت عبد المطلب، فكفل اليتيم عمه أبو طالب وقد غلب الصبي الحزن والألم، فكان يمضي كثيراً من يومه وبعض ليله يذكر فيه أباه الذي لم ير له وجهًا، ويذكر أمه التي لم تتوافر لها العناية به إلا بمقدار يسير، ثم انتزعها الموت وغلبة على الحياة معها، وهو بعد صبي صغير لا حول له ولا قوة. لم يتجاوز الخامسة من عمره، ويذكر جده الذي فارقه منذ أمد صغير، ثم يطلق بصره إلى السماء كأنه يطلب ملجأ وحاميًا، وهو اليتيم الغريب الفريد. مات عبد المطلب سنة ٥٧٩م، وقد رأس مكة نحو، تسع وخمسين سنة عن عشر ومائة سنة، وقيل عن أربعين ومائة سنة. وكان يوضع له فراش في ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد من أهل بيته ولا من أشراف قريش إجلالاً لعبد المطلب، فكان رسول الله ﷺ إذا أتى

يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب دعوا ابني يجلس عليه فوالله إن له لشأنًا، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده.

وترك أبناء وبنات كثيرين، اشتهر منهم أبو طالب وإلياس وحمزة وأبو لهب وصفية وعاتكة وبرة وأروى وأميمة وأم حكيم.

وقد أوصى به عمه أبا طالب شقيق أبيه، وكان مرض عبد المطلب من برد أصابه فعولج ولم يفد العلاج.

واشترك في تشييع جنازته كثيرون من القبائل العربية وكان حفيده النبي ﷺ وهو في السنة الثامنة من عمره يبكي خلف نعشه والعرب يؤبنونه ويرثونه وغيرهم. وقد وردت في المطولات بعض مراثي بناته فيه: صفية وبرة وعاتكة وأم حكيم البيضاء وأميمة وأروى اللائي رثينه بها قبل موته.

* * *

١٢ - كفالة أبي طالب
عم النبي ﷺ

* * *

لما بلغ ﷺ من العمر ثماني سنوات وتوفي جده عبد المطلب كفله عمه أبو طالب وافتخر بشرف كفالته وتربيته، وعطف عليه وآثره بالمودة واختصه بالبر، وكان أبو طالب رجل مروءة وصدق ولكنه كان فقيراً كثير العيال، فلما ضم إليه اليتيم صلح أمره ووجد البركة والسعة في القليل الذي كان يسكبه لعياله، وقد صعب على النبي ﷺ فقر عمه وإعساره، فصار يرعى له الغنم أو يرعاها لأهل مكة بالأجر كما كان أخوه موسى عليه السلام يرعاها في (مدين) بالأجر، وداود عليه السلام في (بيت لحم) كذلك.

وأصاب مكة قحط في بعض السنين فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادي وأجدب العيال فهلم فاستسق فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس تجلت عنها سحابة وحوله أغيملة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ الغلام بأصبعه وما في السماء قزعة فأقبل السحاب من ههنا وههنا وأغدق واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة الأرامل

والثمال بالكسر الملجأ، والعصمة للأرامل الذي يمنعهم من الضياع والأرامل المساكين من رجال ونساء وهو في النساء أكثر.

* * *

١٣ - سفره إلى الشام مع عمه أبو طالب وهي الرحلة الأولى له ﷺ

***

ضرب القرشيون بسهم كبير في التجارة، فذهبوا بقوافلهم إلى الشام مرة في فصل الصيف، وأخرى إلى اليمن في فصل الشتاء من كل عام، وكان الطريق التجاري مهدداً بالسلب والنهب، ولكن حرمة العرب للكعبة وتعظيمهم لقريش وسدنتها، جعلتهم ينظرون إليهم بعين من التقديس ويؤمنون تجارتهم، وكان لهذه التجارة أثر كبير في أهل مكة، اقتنوا الأموال والضياع والعبيد ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش]، وتأهب أبو طالب للسفر مع القافلة الذاهبة إلى الشام، فأظهر النبي ﷺ رغبته في مصاحبته وهو يومئذ في السنة التاسعة أو الثانية عشرة على الأكثر، وقال له: «يا عمي إلى من تكلني لا أب لي ولا أم»، وكان أبو طالب يحبه ولا يكاد يفارقه فاستصحبه وأردفه خلفه على بعيره، فسارت القافلة من خلال الصحراء تقطع الأنجاد المتنائية، حتى نزلت بسوق بصرى[(١)] فباعت وابتاعت، وقد رآه بحيرى الراهب بها وهو حبر من يهود تيماء[(٢)].

---

(١) في موضعين بالضم والقصر، إحداهما بالشام من أعماق دمشق وهي قصبة كورة حوران، مشهورة عند العرب.

انظر المزيد في: معجم البلدان ١/ ٤٤١-٤٤٢.

(٢) بالفتح والمدّ، بليد في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق.

انظر المزيد في: معجم البلدان ٢/ ٦٧.

١٤ - بحيرى الراهب

***

عندما خرج النبي ﷺ مع عمه والتجار ببصرى من أرض الشام، وكان بها بحيرى الراهب في صومعته، فرأى رسول الله ﷺ فخرج من صومعته وأضاف قريشًا وكان لا يخرج إليهم أبدًا ولا يتكلم معهم إذا مروا به، فخرج وكلمهم ووضع لهم طعامًا فعجبوا، وقالوا له: إن لك لشأنًا اليوم.. فدعاهم جميعًا إلى الطعام، وقال: لا يتخلف أحد منكم، وتخلف النبي ﷺ لحداثة سنه في رحالهم تحت الشجرة، فلما اجتمعوا لم يجد بحيرى طلبته، فقال لهم: فيكم متخلف؟ فقالوا: لم يتخلف إلا غلام وهو أحدثنا سنًا، فقال: ادعوه، فأتوه به فرآه بحيرى، وجعل يلحظه لحظًا شديدًا. فلما انتهوا من الطعام وتفرقوا، أقبل بحيرى على النبي ﷺ وقال له: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تسألني بحق اللات والعزى شيئًا فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما»، فقال بحيرى: فبالله الاما أخبرتني عما أسألك عنه. وجعل يسأل والنبي ﷺ يخبره، فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفة، ونظر إلى عاتقه، فوجد خاتم النبوة بين كتفيه في موضعه الذي ذكره في صفته، ثم أقبل بحيرى على عمه أبي طالب فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. فقال: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا. قال أبو طالب: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت. فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريبًا. قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود فوالله لو رأوه وعرفوا منه ما عرفت لقتلوه، وإن لابن أخيك هذا لشأنًا عظيمًا، وإنه لنبي هذه الأمة لما نجده في كتبنا ورويناه عن آياتنا، واعلم أني قد أديت إليك النصيحة

فأسرع به إلى بلده، فبينما هم كذلك إذ أقبل نفر من أهل الكتاب وهم رزيراً وتماماً ودريًا فرأوا من رسول الله ﷺ مـا رأى بحيرى، فأرادوا به سوءاً فـردهم بحيرى، وذكرهم الله ومـا يجدونه في الكـتاب من ذكره وصـفاته، وأنهم لا يخلـصون لما أرادوا، فرجع به أبو طالب مسرعًا إلى مكة حذراً عليه من حوادث الزمن.

* * *

١٥ - حرب الفجار

***

كانت العرب تدين باحترام الأشهر الحرم، يلقى الرجل فيها قاتل أبيه أو أخيه فلا يتعرض له بسوء، وقد اضطروا إلى الخروج على هذه القاعدة ثلاث مرات، وشهد الرسول ﷺ المرة الرابعة، كانت سنه إذ ذاك الرابعة عشرة، وقد أسمت العرب هذه الحروب الأربعة «حروب الفجار» لوقوعها في الأشهر الحرم كأنهم فجروا وعصوا. وسبب حرب الفجار الرابعة أن عروة الرحال أجاز لطيمة (أي جمالاً محملة عطراً وبراً) أرسلها النعمان بن المنذر لتباع في سوق عكاظ ويشتري بثمنها جلداً. وحقد عليه البراض انفراده بها لأنه كان يريد أن يجيزها هو، فخرج خلفه حتى إذا كان بتيمن أصاب البراض من عروة الرحال[١] غفلة فقتله فوقعت بسبب ذلك الحرب بين كنانة قوم البراض وهوازن قوم عروة وعاونت قريش كنانة ودام القتال ستة أيام. وكان أبو طالب يحضر أيام الفجار ومعه رسول الله ﷺ وكان الرسول يساعد أعمامه بالنبل. وطعن أبا براء ملاعب الأسنة وكان

---

(١) هو عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب جاهلي من جلساء الملوك، سمي الرحال لأنه كان كثير الوفادة عليهم، وكان ذا قدر عندهم وبسببه هاجت حرب الفجار «الثانية» بين حي خندف وقيس، وذلك أنه أجار قافلة كان يبعث بها النعمان في كل عام إلى عكاظ فقتله البراض بن قيس الكناني، واستاق القافلة فثارت الحرب بين الحيين. قال ابن الأثير: كانت حرب الفجار هذه بعد موت عبد المطلب باثنتي عشرة سنة، ولم يكن في أيام العرب أشهر منها، مات سنة ٣٢ ق هـ/ ٥٩٢م.

انظر المزيد في: سمط اللآلي ٦٧٢، الكامل في التاريخ ١/ ٢١٤-٢١٧، سرح العيون ٤٦، الآمدي ١٢٥.

رئيس بني قيس وحامل رايتهم إذ ذاك. ثم لما توافوا في العام المقبل بعكاظ كموعدهم خرج عتبة بن ربيعة بن عبد شمس على بعير بين الصفين ونادى يا معضر مضر علام تفانون؟ فاصطلحوا على أن يدفعوا إلى هوازن أربعين رجلاً رهينة فيهم حكيم بن حزام[1] ابن أخي السيدة خديجة، فلما رأت هوازن الرهن في أيديها عفت عن الدماء وأطلقت الرهناء وانقضت بذلك حرب الفجار.

* * *

(١) انظر المزيد في: تهذيب التهذيب ٢/ ٤٤٧، الإصابة ٢/ ٣٤٩، الجمع ١٠٥، صفة الصفوة ١/ ٣٠٤، ذيل المذيل ١٦، شذرات الذهب ١/ ٦٠.

١٦ - حلف الفضول

***

وقـع حـلف الفضـول في شهر ذي القعة سنة أربعـة عشر من ولادته ﷺ بعـد نهـاية حـرب الفجـار. وسبـب ذلك أن رجلاً من زبيـد[١] قدم مكة ببـضاعة فـاشـتراها منه العاص بن وائل[٢]، وكان ذا قـدر بمـكة وشرف فامتنع من دفع قـيمـتـها لـه، فذهب الزبيـدي إلى الأحـلاف من قـريش عبـد الدار[٣]

(١) هو زبيد واسمه منبـه بن صعب بن سعد العشيرة من مـذحج جدّ جاهلي. بنوه بطن من كهلان من القحطانية: وهم زبيد الحجـاز كان عليهم درك الحاج المصري من الصفراء إلى الجحفة ورابغ، وكانوا حلفا آل ربيعة بالشام.

انظر المزيد في: جمهرة أنساب العرب ٣٨٦، نهاية الأرب ٢٢٣، اللباب ١/ ٤٩٥.

(٢) هو العـاص بن وائل بن هاشم السهـمي من قـريش أحد الحكام في الجـاهلية كـان نديمًا لهشام بن المغيرة وأدرك الإسلام وظل على الشرك، ويعد من «المستهزئين» ومن «الزنادقة» الذين ماتوا كفـاراً وثنيين. وكان على رأس بني سهم في حرب «الفجار» وقـيل في خبر مؤتة: خرج يومًـا على راحلته ومعه أبناء له، يتنزه ونزل في أحد الشـعاب. فلما وضع قدمه على الأرض صـاح، فطافوا فلم يروا شيئًـا وانتفخت رجله حتى صـارت مثل عنق البعير ومات، فقالوا: لدغته الأرض.

انظر المزيد في: المحبر ١٣٣ و١٥٨ و١٦١ و١٧٠ و١٧٦، جمهرة أنساب العرب ١٥٦.

(٣) هو عبد الدار بن قصـي بن كلاب بن مرة من قريش جد جاهلي. كـان يعدّ من «حمقى المنجبين» جعل لـه أبوه الحجابة والندوة والسقاية والرفـادة واللواء، وتوارثها أبناؤه إلى أن اعتدى عليـهم بنو عمهم عبـد مناف بن قصي فأرادوا انتـزاعها منهم، فانقـسمت قريش أحلافًا ونحـر بنو عبد الدار وأنصارهم جزوراً وغـمسوا أيديهم في دمه متعاهدين ولعق أحدهم من ذلك الدم وتابعه من كان معه فسموا «لعقة الدم» ثم اصطلحوا على أن تكون لبني عبد مناف السقاية والرفادة ولبني عبـد الدار اللواء والحجابة، وبالنسبة إلى عبد الدار «عبدي» و«عبدري» واقتصر ابن الأثير على «عبدري». =

ومخزوم[1] وجمح[2] وسهم[3] وعدي بن كعب[4]. والتجأ إليهم فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل، وانتهزوه فلما رأى الزبيدي الشر صعد على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة فصاح بأعلى صوته:

يا آل فـهر لمظلـوم بضاعـته ... ببطـن مكة نائي الدار والنفـر

= انظر المزيد في: المحبر ١٦٦ و٣٧٩، نسب قريش ٢٥٠-٢٥٦، جمهرة أنساب العرب ١١٦-١١٩، نهاية الأرب ٢٧٤، اللباب ٢/ ١١٢.

(١) هو مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب من قريش جدّ جاهلي من نسله خالد بن الوليد وأبو جهل وسعيد بن المسيب وكثيرون.

انظر المزيد في: سبائك الذهب ٦٣، التاج ٥/ ٢٦٧، جمهرة أنساب العرب ١٣١-١٤٠، معجم قبائل العرب ١٠٥٨.

(٢) هو جمح «أوسمه تيم وجمح لقبه» بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي جد جاهلي، بنوه بطن من قريش وهم كثيرون. اشتهر منهم قبل الإسلام وبعده جماعات. النسبة إليه «جمحي» بضم الجيم وفتح الميم.

انظر المزيد في: نهاية الأرب ١٨٣، جمهرة أنساب العرب ١٥٠-١٥٤، اللباب ١/ ٢٣٦.

(٣) هو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي جَدٌّ جاهلي من قريش بنوه عدة بطون، من ذريته عمرو بن العاص وكثيرون أورد ابن حزم في جمهرة أنساب العرب أسماء بعضهم.

انظر المزيد في: نهاية الأرب للقلقشندي ٢٤٥، جمهرة أنساب العرب ١٥٤، اللباب ١/ ٥٨٠.

(٤) هو عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، من قريش من عدنان جدٌّ جاهلي من نسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكثيرون.

انظر المزيد في: نهاية الأرب ٢٩١، اللباب ٢/ ١٢٦، جمهرة أنساب العرب ١٤٠-١٤٩، معجم قبائل العرب ٧٦٦.

ومحرم أشعث لم يفض عمرته ... ياللرجال وبين الحجر والحجر

إن الحـــرام لمن تمت كرامـته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب[1] وقال: ما لهذا مـترك؟ فأجابه بنو هاشم وبنو زهرة[2] وبنو أسـد بن عبد الـعزى[3] واجتـمعـوا في دار عبـد الله بن جـدعان التميمي[4] لشرفه وكبر سنه، وكـان أكرم رجل في قريش، كان يذبح كل يوم في

---

(١) هو الزبير بن عبـد المطلب بن هاشم أكبر أعمام النبي ﷺ أدركـه النبي ﷺ في طفولته، وكان يعد من شعراء قريش إلا أن شعره قليل، يقال منه البيتان اللذان أولهما:

إذا كنت في حاجة مرسلا

فأرسل حكيمًا ولا توصـه

انظر المزيد في: الروض الأنف ١/٧٨، سمط اللآلي ٧٤٣، الجمحي ١٩٥ و٢٠٥.

(٢) هو زهرة بن كلاب بن مرة من قريش من العدنانيـة جدٌ جاهلي من ذريته بعض الصحابة وجماعة كانوا في بلاد الأشمونيين وما حولها من صعيد مصر.

انظر المزيد في: نهاية الأرب ٢٢٨، اللباب ١/٥١٣.

(٣) هو أسد بن عبد العزى بن قصي من أجداد العرب في الجاهلية، بنوه حي كبير من قريش منهم حكيم بن حزام الصـحابي وخديجة أم المؤمنين وورقة بن نوفل. وكـانت تلبية «بني أسد» في الجـاهلية إذا حجوا: «لبـيك اللهم لبيك، يا رب أقبلت بنو أسـد، أهل الوفاء والجلد، إليك».

انظر المزيد في: جمهـرة أنساب العرب ١٠٨-١١٦، تاريخ اليعقـوبي ١/٢١٢، سبائك الذهب ٦٦.

(٤) هو عبد الله بن جدعـان التيمي القرشي أحد الأجواد المشهـورين في الجاهلية أدرك النبي ﷺ قبل النبوة وكانت له جفنة يأكل منها الطعام القـائم والراكب فوقع فيها صبي، فغرق وهو الذي خاطبه أمية بن أبي الصلت بأبيات اشتهر منها قوله:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني

حياؤك؟ إن شيمتك الحياء =

بيته جزوراً وينادي مناد: من أراد الشحم واللحم فعليه بدار ابن جدعان، وكان يصنع الفالوذج (وهو أفخر الحلوى حينذاك)، وحضر مائدته رسول الله ﷺ وهو غلام. فتحالفوا على أن يردوا الفضول على أهلها، وهو ما يؤخذ ظلمًا، وأن لا يقروا ظالمًا على ظلمه (ما بل بحر صوفة، وما رسا حراء، وثبير مكانيهما)، وحراء وثبير جبلان بأعلى مكة، وهذا العهد يفيد معناه التأييد، وكان رسول الله ﷺ معهم في هذا الحلف، وقال ﷺ: «ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»، ثم مشوا إلى العاص ابن وائل وانتزعوا منه سلعة الزبيدي ودفعوها إليه، وقال الزبير بن عبد المطلب عم النبي ﷺ في ذلك:

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ... ألا يقيم ببطن مكة ظالم

أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا ... فالجار والمعتز فيهم سالم

فسمت قريش ذلك الحلف - حلف الفضول - وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر. وبقي حلف الفضول إلى البعثة، فإذا وقع ظلم على أحد قام المتحالفون بنصرة المظلوم. قال ابن الأثير[1] في النهاية: حلف الفضول سمي به

= له أخبار كثيرة أورد الأصفهاني وغيره بعضها متفرقة وسماه اليعقوبي بين حكام العرب في الجاهلية.

انظر المزيد في: الإصابة ت ٤٧٥٤، إمتاع الأسماع ١/ ٥٥، حلية الأولياء ١/ ١٠٨ ثم ٥/ ١٢٠، حسن الصحابة ٣٠٠، المحبر ٨٦ و١١٦.

(١) هو علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري أبو الحسن عز الدين ابن الأثير المؤرخ الإمام من العلماء بالنسب والأدب. ولد سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م ونشأ في جزيرة ابن عمر وسكن الموصل وتجول في البلدان وعاد إلى الموصل، فكان منزله مجمع الفضلاء والأدباء وتوفي بها سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م.

انظر المزيد في: وفيات الأعيان ١/ ٣٤٧، مفتاح السعادة ١/ ٢٠٦، طبقات السبكي ٥/ ١٢٧، آداب اللغة ٣/ ٨٠، العرب والروم لفاريليف ٣٠٣.

تشبيهًا بحلف كان قديمًا بمكة أمام جرهم[1] على التناصف، والأخذ للضعيف من القوي والغريب من القاطن، قام به رجال من جرهم كلهم يسمى الفضل، منهم الفضل بن الحارث، والفضل بن وداعة، والفضل بن فضالة.

* * *

(١) هو جرهم بن قحطان جدٌ جاهلي يماني قديم كان له ولبنيه ملك الحجار ولما بني البيت الحرام بمكة كان لهم أمره، وأول من وليه منهم الحارث بن مضاض إلى أن غلبتهم عليه خزاعة فهاجروا عائدين إلى اليمن.

انظر المزيد في: مروج الذهب ٣/ ٩٩ و١٠٣، نهاية الأرب ١٧٨، التيجان ١٧٧.

١٧ - تجارته ﷺ وسفره إلى الشام

عن أبي هريرة[١] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم». قال له أصحابه وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط (بالأجر)». قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: إنه رعى لأهله بغير أجر ولغيرهم بأجر.

وروي عن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ نجتى الكباث «ثمر الآراك» أي ونحن نرعى الغنم فظل يرعاها حتى بلغ الثانية عشرة من عمره إذ أتيح له مزاولة التجارة.

وقد مضى الكلام عن سفره صحبة عمه أبي طالب إلى الشام، وهو غلام. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صحب النبي ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة، والنبي ابن عشرين سنة يريدون الشام في تجارة حتى نزلا منزلاً فيه سدرة «شجرة السدر»، قعد في ظلها ومضى أبو بكر إلى

(١) هو أبو هريرة بن عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني حفظ عن النبي ﷺ الكثير وعن أبي بكر وعمر وأبي بن كعب. وعنه سعيد بن المسيب وبشير بن نهيك وخلق كثير. وكان من أوعية العلم، ومن كبار أئمة الفتوى مع الجلالة والعبادة والتواضع. وولي إمرة المدينة وناب أيضًا عن مروان في إمرتها. قال البخاري: روى عنه ثمانمائة نفس أو أكثر. قال الشافعي: أبو هريرة: أحفظ من روى الحديث في دهره. وقال أبو عثمان النهدي: تضيفت أبا هريرة سبعًا فكان هو وامرأته وخادمه يتعقبون الليل أثلاثًا يصلي هذا ثم يوقظ الآخر فيصلي ثم يوقظ الثالث، مات سنة ٥٨هـ.

انظر المزيد في: النجوم الزاهرة ١/ ١٥١، العبر ١/ ٦٢، طبقات القراء للذهبي ١/ ٤٠، طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٣٧٠، شذرات الذهب ١/ ٦٣، خلاصة تذهيب الكمال ٣٩٧، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢، أسد الغابة ٦/ ٣١٨.

راهب يقال له بحيرى يسأله عن شيء فقال له: من الرجل الذي في ظل الشجرة؟ قال: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. قال: هذا والله نبي ما استظل تحت ظلها بعد عيسى إلا محمد ﷺ ووقع في قلب أبي بكر الصديق، فلما بعث النبي ﷺ اتبعه.

وكان طريق الكسب في قريش التجارة وكانت خديجة بنت خويلد من بني أسد بن عبد العزى بن قصي، سيدة ذات مال تتبحر في مالها بطريق المضاربة مع من تثق فيه من الرجال، فلما سمعت بأمانة رسول الله ﷺ وصدقه حتى اشتهر بين قومه باسم (الأمين) بعثته إليه فقالت له: إني دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظيم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك. ففعل رسول الله ﷺ ولقى عمه أبا طالب وكانا قد تحادثا في هذا الشأن من قبل، فقال له أبو طالب: إن هذا الرزق ساقه الله إليك. فخرج مع ميسرة غلام خديجة رضي الله عنها. وقد أوصته خديجة بطاعته وأوصى عمومته به أهل العير.

ورأته خديجة حين دخل مكة في الظهيرة عائداً من السفر وهو على بعيره وملكان يظلانه، فلما أخبرها بما ربحوا سرت وأخبرها ميسرة بما رآه وما سمعه من نسطور الراهب، فرحت وأضعفت له ما سمته له، وروى الحاكم أنه سافر إلى جرش باليمن مرتين تجارة لخديجة، وقد شاهد ميسرة في هذه الرحلة كثيراً من إيات نبوته ﷺ وإكرام الله تعالى له، فإنه ﷺ لما قدم من الشام نزل في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب هناك. فقال هذا الراهب لميسرة: «إنه ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي»، وكان ميسرة يشاهد رسول الله ﷺ ومظللاً من حر الشمس وهو يسير على بعيره بدون أن تكون عليه مظلة.

***

١٨ - زواج الرسول الأعظم بالسيدة خديجة بنت خويلد

* * *

كانت خديجة رضي الله عنها امرأة حازمة شريفة لبيبة، مع ما أراد الله بها من كرامة وسيادة ذات شرف وجمال، وقد بلغت من عمرها الأربعين وتزوجت من قبل رجلين أولهما أبو هالة بن زرارة التميمي واسمه «النباش» فولدت له هنداً، وهو من الصحابة، وهالة وهما ذكران. وبعد موته تزوجت عتيق بن عابد المخزومي فولدت له بنتًا اسمها هند، اسلمت وصحبت النبي ﷺ وقد تركا لها مالاً زاد في ثروتها التي ورثتها عن أبيها فيقال إنها كانت تملك نصف عير مكة، ومن أغنى أهلها كثر حرص قومها على زواجها وقد طلبوها فأبت. روي أنها كانت مع نساء قريش أنه يوشك أن يكون فيكن نبي فأيتكن استطاعت أن تكون فراشًا له فلتفعل، فحصبنه بالحجارة وقبحنه وأغلظن له. وأغضت خديجة على قوله ولم تعرض فيما عرض فيه النساء ووقر في نفسها، فلما سافر النبي ﷺ وأخبرها ميسرة بما رأى، ورأت هي بنفسها البركة والخير وشهدت الآيات، وقصت ذلك لورقة بن نوفل ابن عمها وكان امرءاً قد تنصر وتتبع الكتب وعلم من علم الناس. فقال ورقة بن نوفل لئن كان هذا حقًا يا خديجة أن محمداً لنبي هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي قد أقبل زمانه.

أعجبها النبي ﷺ في كل شيء، فرأت أن ترسل إليه خفية قريبات له يرغبنه في زواجها، وبينما كان النبي ﷺ يعيش عيشته الهادئة غير مفكر في شيء، متجنبًا جهده أن يخالط الناس أو أن يطمح إلى شيء مما في أيديهم، وأنه لكذلك

وإذا بأحد رسل خديجة تلح عليه وتحدثه عن إحجامه عن الزواج. وقد بلغ الخامسة والعشرين فما كان جوابه إلا أن قال: «ما بيدي ما أتزوج به» قالت: «أرأيت إن دعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة أفلا لبيت؟» قال: «فمن هي؟» قالت: «خديجة»، فقبل واغتبط واحتفلت مكة بعقد قرانهما وقام عمه أبو طالب خطيبًا فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وضئضئ معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتًا محجوبًا وحرمًا إمنًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم أن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوازن برجل إلا رجح به شرفًا ونبلاً وفضلاً وعقلاً، فإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة، ومحمد من قد عرفتهم قرابته. وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله كذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم.

فأجابه ورقة بن نوفل فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها وأنتم أهل ذلك كله لا تفكر العشيرة فضلكم ولا أحد من الناس فخركم وشرفكم. وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا على معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد محمد بن عبد الله كذا، فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها عمرو بن أسد. فقام عمرو بن أسد فقال: اشهدوا عليّ يا معشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد. فقبل النبي ﷺ النكاح وأشهد على ذلك صناديد قريش وأصدقها اثنتي عشرة أوقية ذهبًا ونشا (النش نصف الأوقية والأوقية أربعون درهمًا) وتم العقد.

عند ذلك طارت خديجة فرحًا وأمرت جواريها أن يرقصن طربًا ويضربن على الدفوف، وفي يوم العرس صنع أبو طالب وليمة عظيمة، دعا إليها الناس

وظلت صلات الزوجين خير مثل لما وجب أن يكون بين زوجين من مودة ورحمة وولدت خديجة للنبي ﷺ القاسم، ولكنه لم يلبث قليلاً حتى جاور ربه ولكن الله أعاضهما بأربع بنات متواليات لم يمتن إلا بعد الهجرة (رقية وزينت وأم كلثوم وفاطمة)، ثم وهبهما الله سبحانه وتعالى عبد الله بعد البعثة وقد مات صغيراً.

هؤلاء أولاده ﷺ من السيدة خديجة بأسمائهم وقد علمت أنه لم يمت منهم قبل البعثة أحد غير القاسم. واشترت خديجة مملوكًا صغيراً عربيًا من السوق يسمى زيداً. وكان الرسول ﷺ يكرء الرق فسألها إعتاقه فوهبته له، فأعتقه وخيره بين أن يرده إلى أهله أو أن يبقيه عنده، فاختاره عليهم، فسمته قريش زيد بن محمد على عادتهم في ذلك الحين.

وقد عاب القرآن الكريم على قريش فعلها ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ... ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب]، وقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب].

وزيد هذا الذي كان زوجه الرسول ﷺ زينب بنت جحش، فلما أراد أن يطلقها أمره باستمساكها فنزل في شأن ذلك قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ... ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب].

* * *

١٩ - من وفاء الرسول ﷺ

* * *

بلغت الفترة الزوجية التي قضاها رسول الله ﷺ مع السيدة خديجة رضي الله عنها ثمانية وعشرين عامًا، منها إحدى عشرة سنة بعد البعثة. كانت هذه السنون السبعة عشرة الأولى من البعث أشق الأيام على الرسول ﷺ وأكثرها إرهاقًا. فقد كان رد الكفار عليه حين بلغهم رسالة ربه أن إذوه وافتنوا في هذا الإيذاء، وألبوا عليه القبائل وكلما ذهب إلى قوم ردوه ردًا غير كريم.

ولكنه حين يرجع إلى بيته يجد الزوجة الصالحة التي تواسيه وتشد أزره وتهدئ روعه. يجد الزوجة التي تزيح عنه كابوس الهم وتسري عن قلبه مرارة الضيق لتضفي عليه رداء من البشر والطمأنينة. لم ترهقه من أمره عسراً. بل ساعدته على التفرغ لرسالته، واستقبال هذا الأمر العظيم الذي يعلي الحق ويزهق الباطل، وأعتقد أن خديجة رضي الله عنها لها فضل كبير على الإسلام في هذه الحقبة إذ هيأت لرسول الله ﷺ حياة منزلية هانئة صافية. كلها الحب والعطف والحنان. كما أشرفت على راحة هذا الزوج الكريم، وصانت روحه المعنوية، وواسته في ضرائه فما انخلع قلبه ولا تهدمت أعصابه من عناد قوم جبارين، وقسوة طغاة إثمين.

وبلغ الرسول ﷺ العقد السادس من عمره، وصارت شيخة مكتهلة ولكن حبه لها لم يزل فتيًا، ذلك بأن محمداً ﷺ إنما شرع لنا بفعله مقاصد الزواج، ومعانيه العليا من التعاون والتعاطف والتراحم واقتسام أعباء الحياة، ولقد بقيت كل هذه النواحي تلى تقدم (خديجة) رضي الله عنها في السن سليمة نامية قوية فوفى لها عليه الصلاة والسلام أقدس الوفاء وأكمله.

كان وفيًا لأيامها وفيًا لذكراها وفيًا لصديقاتها، بل لقد لقب عام وفاتها (بعام الحزن) ولقد بلغ من طول ما يذكر عليه الصلاة والسلام مآثر خديجة رضي الله عنها وإن كانت عائشة رضي الله عنها تغار منها وإن لم ترها، قالت من حديث لها: لقد ذكر عليه الصلاة والسلام خديجة رضي الله عنها يومًا من الأيام فأخذتني الغيرة فقلت له: مه هل كانت إلا عجوزًا، قد أبدلك الله خيرًا منها، فغضب عليه الصلاة والسلام، ثم قال: «لا والله ما أبدلني خيرًا منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء».

وكان إذا ذبح الشاة يقول أرسلوا إلى أصدقاء خديجة وكان يحب حبيبها، وكان لا يسمع من المشركين شيئًا يكرهه من رد عليه وتكذيب له إلا فرج الله عنه بها تثبته وتصدقه وتخفف عنه وتهون عليه ما يلقى من قومه ولذلك صارت من خير نساء العالمين وبشرت بقصر في الجنة وبلغت السلام من رب العالمين.

* * *

٣٠ - حكمة تعدد زوجاته ﷺ

تزوج رسول الله ﷺ بعد وفاة خديجة رضي الله عنها عدة زوجات لحكمة عامة وخاصة، فأما الحكمة العامة فجعلهن معلمات لنساء المسلمين آداب الزوجية وما هو خاف عليهن من أحكام الشرع النسائية، وأما الأسباب الخاصة فمنها مكافأة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما صاحبيه وخاصة بطانته بشريفهما وإقرار عينهما، ومنها توضيح الحقوق الشرعية بالتزوج ببنت عمته زينب بعد تزويجها بزيد الذي كان تبناه وكان ذلك بأمر صريح من الله، ومنها كفالته لأم سلمة مع أولادها الأيتام وكانت هي وزوجها من السابقين الأولين إلى الإسلام، ومنها التأليف واستمالة بعض البيوتات والقبائل إلى الإسلام كتزوجه بصفية الإسرائيلية، وبأم حبيبة برّة بنت أبي سفيان العامرية وسودة القرشية الأنصارية وجويرية بنت الحارث المصطلقية، وكان أبوها سيد قومه قد حارب رسول الله ﷺ فقتلوا بعض قومه وأسروا الباقين فحررها الرسول ﷺ وتزوجها فأعتق أصحابه لذلك جميع قومها فأسلموا كلهم وكان لذلك أحسن الذكر في العرب كلها.

وقد كان تعدد الزوجات عند العرب وغيرهم غير مقيد بعدد ولا شرط فقيده الإسلام بالأربع، واشترط ثقة الرجل في العدل بالتعدد حرصًا على منع الفاحشة وتكثير النسل فمن خاف ألا يعدل وجب عليه الاقتصار على زواج واحدة أو التسري ببعض سبايا الحرب العادلة الذي شرع لحفظهن من الفساد وجعلهن أمهات أولاد. وكان قد اجتمع عنده ﷺ تسع أزواج فأمره الله تعالى أن يخبرهن بينه ﷺ وبين الطلاق بالحسنى مع التمتع بما تيسر من منافع الدنيا فخيرهن فاخترن الله ورسوله والدار الأخرى فحرمهن الله على غيره وحرم عليه غيرهن، حتى توفى عنهن كلهن وجعلهن أمهات للمؤمنين في وجوب البر وحرية الدين.

وسنذكر لك بقية زوجاته ﷺ على ترتيب زواجه منهن فنقول:

بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها بأيام تزوج ﷺ بالسيدة سودة بنت زمعة العامرية القرشية[1].

روي أن خولة بنت حكيم[2] أيضًا قالت له بعد وفاة خديجة ألا تزوج؟ قال: «من؟» قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا. قال: «فمن البكر؟» قالت: بنت أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبي بكر، قال: «ومن الثيب؟» قالت: سودة بنت زمعة وكانت من السابقات إلى الإسلام، وتزوجت من السكران بن عمرو وهاجرت معه الهجرة الثانية إلى الحبشة ثم رجعت معه إلى مكة، وتوفي بها فتزوجها رسول الله ﷺ وهي أول امرأة دخل بها رسول الله ﷺ بعد خديجة، قال: «فاذهبي فاذكريهما علي» فجاءت بيت أبي بكر الصديق فوجدت أم رومان والدة عائشة فقالت لها: ما أدخل عليكم من الخير والبركة؟ قالت أم رومان: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قالت: وددت انتظري أبا بكر، فجاء أبو بكر فذكرت له ذلك فقال: وهل تصلح له وهي بنت أخيه، فرجعت خوله للنبي ﷺ فذكرت ذلك له، قال: «قولي له أنت أخي في الإسلام وابنتك تحل لي» فجاءته فأخبرته فأنكحها وهي يومئذ بنت ست سنوات، ودخل بها المدينة وهي ابنة تسع وكانت أفقه النساء. روي أن الرسول ﷺ قال في حقها: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء»، ثم تزوج بالسيدة حفصة بنت سيدنا عمر

---

(١) روت عن النبي ﷺ، روى عنها ابن عباس ويحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد ابن زرارة، كانت أسلمت بمكة قديمًا وهاجرت هي وزوجها إلى الحبشة الهجرة الثانية، ماتت سنة ٥٤هـ.

(٢) كانت صالحة فاضلة روت عن النبي ﷺ. روى عنها سعد بن أبي وقاص وسعيد بن المسيب وبشر بن سعد وعروة بن الزبير، ثقة.

ابن الخطاب، ثم تزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة بن الحارث القيسية، وتوفيت بعد بنائه بها بشهرين، ثم تزوج بالسيدة أم سلمة هند بنت أمية القرشية المخزومية، ثم تزوج بالسيدة زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة، ثم تزوج بالسيدة جويرية بنت الحارث من بني المصطلق، ثم تزوج بالسيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان صخر ابن حرب القرشي الأموي، ثم تزوج بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية وهي آخر من تزوج بهن. وقد توفي ﷺ عن تسع من نسائه: عائشة وحفصة وزينب بنت جحش وأم سلمة، وصفية وأم حبيبة وميمونة وسودة وجويرية.

* * *

٢١ - شهوده بناء الكعبة
وتحكيمه في وضع الحجر الأسود

***

كان ﷺ عظيمًا برجاحة عقله، وبعد نظره، وحسن سياسته، وشدة كيسانه، ومهارته في الخروج من المآزق الحرجة، وحل المشاكل المعقدة على الوجه الذي يحقق المصلحة العامة، ولعل هذا ينكشف لنا جليًا يوم اختلفت قريش فيمن يكون له شرف وضع الحجر الأسود، في مكانه حين بناء البيت الحرام.

فإنه لما بلغ عليه الصلاة والسلام خمسًا وثلاثين سنة جاء سيل جارف صدع جدران الكعبة فأرادت قريش هدمها ورفعها. لكنهم أشفقوا من الهدم إجلالاً للكعبة وإعظامًا للبيت العتيق حتى تقدم (الوليد بن المغيرة) فبدأ في الهدم، وقال: ما أردنا إلا الإصلاح، فتبعه القوم، ولما أخذوا في البناء أعدوا لذلك نفقة ليس فيها من بغي ولا بيع ربا، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم وبينهم (العباس بن عبد المطلب)، و(محمد ﷺ) فلما انتهوا إلى (الحجر الأسود) الرمز العتيق الأقدس الذي أسلمته الأيدي الكريمة أيدي إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وديعة في زمام العرب وفي حياطة الأجيال، اختلفت القبائل وتنازع الأشراف وعظم تنافسهم في وضع الحجر مكانه، ولقد كبر الخلاف وتشعب حتى كادت تتأجج نيران حروب لا تنطفئ جذوتها ولا يعرف مداها فأدركتهم عندئذ (بمحمد ﷺ) رحمة الله، ذلك أن أبا أمية الوليد بن المغيرة نادى فيهم: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد فيقضي بينكم فاتفقوا على ذلك، فكان أول من دخل منه رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا:

هذا الأمين، هذا محمد، رضينا، فتحاكموا إليه، فأشار أن يبسط رداءه وأن يضع فوقه الحجر الأسود ففعلوا ما أمرهم به، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب وأمرهم برفعه جميعًا، حتى انتهوا به إلى موضعه، فأخذه بيده الشريفة ووضعه في مكانه وهكذا انطفأت الفتنة بأصالة رأيه وحق قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، ورضيت قريش بتحكيم محمد ﷺ في الأمر الجليل الخطير، وما كان أسنهم ولا أوفرهم سراء، ولكن شمائله قد أعدته لعظائم الأمور، وأمانته قد رفعته فوق حزازات الصدور، ولقد شهد له بكرائم المحامد الدعاة «النضر بن الحارث» من بني عبد الدار حيث يقول في ملأ من قريش:

لقد كان محمد ﷺ فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر، ولا والله ما هو بساحر.

من هذا ترى أن سيرته الشريفة قبل مبعثه كانت فوق الظنيات، وأسمى من أن تتعلق بها الشبات ثم مع هذا العقل الكامل.

٣٢ - حالة العرب الاجتماعية
قبل ظهور النبي ﷺ

* * *

لقد حدثكم التاريخ الصادق قبل ظهور النبي ﷺ بما كان عليه العالم من تخبط في ظلمات الأوهام والخرافات، ومن تكبيل العقول بتقاليد الآباء والأجداد، وصدها عن النظر الصحيح فيما تضمنته صحيفة الكون من أدلة وآيات.

حدثكم التاريخ بما كان عليه العالم على العموم من شر متماوج وفوضى كاسحة، وبينما العالم على هذا الحال إذ بعث الرسول ﷺ وانبلج الفجر وأشرقت الشمس، شمس الهداية الإلهية عن أفق النفس الزكية الطاهرة: نفس محمد الرسول الكريم، فحول اتجاه العالم وهو ينحدر في مهاوي الهرج والفساد، إلى مدارج الصلاح والنظام، وإقامتهم من الانحناء نحو الأرض لتقديس ما فيها من مخلوقين إلى الشخوص للسماء لإجلال مطالعها، واستجلاء ما فيها حتى تنقشع عن النفوس الأباطيل: ﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]، فشاد لهم أصل المساواة، وقضى على الفوارق التي كانت حائلة بين الناس وبين محاولة الكمال، أو بلوغهم إلى الأهداف الإنسانية الكاملة. إذ كان فريق من الناس يصعد به الغرور إلى مزاعم الإلهية، وفريق آخر لا يحاول النهوض عن مهوى العبودية. عرف الناس ألا يعلم الغيب إلا الله ولا يخفض ولا يرفع ولا يضر ولا ينفع ولا يعز ولا يزل إلا الواحد القهار، وأنه «لو اجتمع الناس من أولهم إلى آخرهم على أن يضروا واحدًا من الناس لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا من أولهم إلى آخرهم على أن ينفعوه بشيء لم يكتبه الله له

لم ينفعوه أبدًا»[1]. فانتشل الإنسانية من وهدات الذلة بتقديس المخلوقين ورجاء المصنوعين، وبنى لهم أصل العز المتين بدعوتهم إلى توحيد الله وإفراده بالتقديس والعبادة، والإقرار بالتعظيم والإجلال غير خاشعين إلا لله ولا خاضعين لخالق سواه، وأنه لا طاعة عليهم لمخلوق إلا طاعة حددها الله، وإن «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»[2]، و«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[3].

* * *

(١) ورد في صحيح مسلم وسنن الترمذي وابن ماجه والبيهقي.

(٢) متفق عليه.

(٣) ورد في صحيح البخاري وسنن النسائي والدارقطني.

٢٣ - مما أكرمه الله تعالى به قبل البعثة

***

أكرم الله آل حليمة السعدية[١] التي أرضعته ﷺ فبدل عسرهم يسراً وأشبع غنيماتهم، وأدر ضروعها في سنة الجدب والشدة، كما بارك الله سبحانه وتعالى في رزق عمه أبي طالب[٢] حينما كان في كفالته مع ضيق ذات يده، كما كان سبحانه وتعالى يسخر له الغمامة تظله - وحده - من حر الشمس في سفره إلى الشام، فتسير معه أنّى سار - دون غيره من أفراد القافلة. كان الله سبحانه وتعالى يلهمه الحق، ويرشده إلى المكارم والفضائل في أموره كلها، حتى أنه كان إذا خرج لقضاء الحاجة في سفره ابتعد عن الناس حتى لا يرى.

وقد كان علماء اليهود والنصارى، رهبانهم وكهنتهم، يعرفون زمن مجيئه ﷺ مما جاء في أوصافه في التوراة، وما أخبر به المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، فكانوا يسألون عن مولده وظهوره، وقد عرفه كثيرون منهم، لما رأوا ذاته الشريفة أو سمعوا بأوصافه وأحواله ﷺ.

ولم تثبت الأحاديث الصحيحة كيفية تعبده ﷺ والذي ثبت أنه ﷺ كان يختلي في غار حراء[٣] من كل سنة شهراً، وكان يوافق ذلك شهر رمضان يعبد الله تعالى بالفكر، ويطعم المساكين مما كان يتزود به في مدة خلوته.

---

(١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ١٣٥.

(٢) ابن سعد، الطبقات ٤/ ١٠٥-١٢٠.

(٣) بالكسر والتخفيف والمدّ جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال وهو معروف.

انظر المزيد في: معجم البلدان ٢/ ٢٣٣.

وكان إذا انتهى من خلوته ينصرف إلى الكعبة، فيطوف بها سبعًا أو ما شاء الله من ذلك قبل أن يرجع إلى بيته، وكان يحب العزلة والخلوة من طفولته إلى أن بعثه الله تعالى رحمة للعالمين.

وما عـرف أنه ﷺ حضر مجلسًـا من مجالس الله، ولا شرب الخـمر، ولا أكل ما ذبح لغيـر الله، وما وافق قريشًا على شيء مما كـانت تدين به ولا الوقوف بعرفة. وكما أنه لم يمس نسبه الشريف شيء من رجس الجاهلية. كذلك حفظه الله وصانــه من أقذار الجاهـلية، فكان أحـسنهم خلقًا، وأحـسنهم جوارًا، وأعظمـهم حلمًا، وأوفاهم أمانة، وأصدقـهم حديثًا، وأبعدهم عن الفحش والأذى والرذائل، فما رؤي مماريًا ولا مـداجيًا ولا ملاحيًا حـتى اجتمع قومه على تسمـيته بالأمين، لكل هذه المزايا الفاضلة والأخلاق الكاملة.

وكان النبي ﷺ يجد في العـبادة قرة عين وطمأنينة نفـسه. ولو أنه كان من النساك الذي انقطعـوا للرهبانية أو المتصـوفة الذين انصرفوا عن الدنيـا، لما كان في نسكه وتعـبده بدعـة، وإنما الذي يلفت نظر الباحـث في حياة رسـول الله ﷺ هو ذلك الجمع الغريب بين النسك الذي يبلغ أرقى مراتب التعبد وبين القيام على أمور الدنيا التي كان يعيش فيها بكدِّه، ويعول كثيرًا من الأهل والفقراء.

ذلك الجمع بين الدين والدنيا يجعل من رسول الله ﷺ مثلاً قائمًا بنفسه في تاريخ البشرية منقطع النظيـر، كان يقسم يومه: جزءًا للعبـادة وجزءًا للناس وجزءًا لأهله، فإذا طغى ما للناس انتقص من الوقت الذي هو لأهله واحتفظ بما هو لله، وقد واظب على ذلك مواظبة عجيبة تسـتحق مزيد الإعجاب من أنصاره وخصومه على السواء.

وكان مما أكـرمه الله به صفـات حلاه وجمله بهـا فمنها بلاغـته وفصاحـته وقدرته العجيبة في فنون القول، فقد تكاملت له كلّ هذه الموهبة في كل ضروبها،

ففصاحة في اللسان، وفصاحة في الكلام، وألفاظ وبلاغة في المعاني حيدت أولي النهى من بعده بل حيرت صاحبه أبا بكر رضي الله عنه وهو ما هو من البلاغة والفصاحة، قالت عائشة رضي الله عنها: «ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هـا، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل، يحفظه من جلس راكبه»[1]. وقال هو عن نفسه: «أوتيت جوامع الكلم»[2]، فكان كلامه حبيبًا إلى النفس سريع الوصول إلى الآذان.

وكان له مع الفصاحة صباحة وجه وجمال وكرم جانب ولين وكرم أخلاق حببت الناس فيه، قال تعالى: ﴿... وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ... ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

وإلى جانب ذلك كان قوي النفس، رفيع الخلق، لقب بالأمين، كل هذه الأسباب مجتمعة والمواهب الفذة وإرادة الحكيم سبحانه هيأت الرسول لتحمل الرسالة وإبلاغها إلى قومه والكفاح والجهاد في سبيل إعلاء الدين الإسلامي وجعل كلمة الكفر والشرك هي السفلى.

* * *

(١) ورد في طبقات ابن سعد.

(٢) ورد في السيرة النبوية لابن هشام.

٣٤ - بعثة النبي ﷺ

***

لما بلغ رسول الله ﷺ الأربعين من عمره، قبل الهجرة بثلاثة عشر عامًا، في السابع عشر من شهر رمضان، بعثه الله تعالى للناس كافة مبشراً ونذيراً ورحمة للعالمين، لينقذهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ... ②﴾ [الجمعة].

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ③⓪﴾ [الرعد].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ... ①①⑨﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ④⑤ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ④⑥ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ④⑦﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ ... ⑦﴾ [الشورى].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ⑧①﴾ [آل عمران].

ختم الرسل عليهم الصلاة والسلام بالصادق الأمين محمد ﷺ الذي اختاره

المولى جل شأنه ليكون رسول الله وخاتم النبيين فكان أشملهم دعوة وأعمهم رسالة وأبقاهم شريعة.

جاء في وقت كثر فيه الناس وتعدد دياناتهم واختلفت عقائدهم فمن تابع لإبراهيم، ومن مصدق بموسى والتوراة، إلى مؤمن بعيسى والإنجيل أو مقدس صنمًا من حجر أو طين أو عجوة أو غير ذلك، ليقربه إلى الله وفيهم من لا يتبع نبيًا ولا يخضع لأصنام أو نيران أو كواكب ونجوم. وقد كان لهذا التباين أثره في حياة الناس، إذ كانت الحروب لا تخمد والفتن لا تنام والبغضاء مستحكمة ولم يبق شيء في حياة العرب الجاهلية ولا غيرهم من الأمم المحيطة بهم إلا ظهر فيه أثر ذلك التباين والاختلاف وكذلك كانت الأسباب الأخرى التي يبعث الله من أجلها الرسل، قائمة متحققة أيضًا قبل بعثة محمد الكريم من أجل ذلك كله اقتضت حكمة الله أن يرسل إلى الناس رسولاً يوحد دياناتهم ويضم شملهم ويقضي على العداوة والبغضاء بينهم حرصًا على الأنفس وقضاءً على الفوضى وإبقاءً على عمارة الأرض فاختار لذلك محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي وأرسله إلى الناس عامة ﴿... يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف]، وينسخ الشرائع السابقة لتحقق الفائدة من إرساله، فينظم الناس تحت لواء واحد ويجمعهم حول دين عام إخوانًا متآلفين وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، وفي آية أخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ].

- بعث محمد ﷺ فكانت بعثته شعلة مقدسة أنارت ظلمة الكون الدامس وكانت بعثته أعظم منقذ للإنسانية من ويلات كادت تودي بحياتها، حيث استعلى ذوو العروش والتيجان، وساموا الناس الخسف وطغوا وبغوا، ولم يبق

للمستضعفين في الأرض ملجأ يلجأون إليه، وعمت الفوضى وأنذرت بالخراب، فظهر صاحب الدعوة الإسلامية في الوقت المناسب، وفرق بسيوف دعوته جنود الظلم والعسف، وشتت عساكر الجور والطغيان، فثلت تلك العروش وطوحت تلك التيجان، وأقيم على أنقاضها ميزانها العادل الرحيم، وأتت النصفة لأهل الأرض من الحكيم العليم، بتبليغ الدين الصحيح الموحى إليه من السماء، ذلك الدين الذي اختاره الرحمن جل وعلا قانونًا تسير عليه الأمم في معاملاتهم، ونبراسًا يستضيئون به في أمور معاشهم ومعادهم، وبما بثه ﷺ من روح العزيمة والكفاح والبطولة في أتباعه الذين ساروا على نهج دينه الحنيف.

على أن البشارة ببعثة الرسول ﷺ قد وردت في الكتب السماوية المنزلة على لسان الأنبياء السابقين، ففي إنجيل يوحنا [ص٤١ ف٥١]: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليطًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد. روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم وفيكم». وفارقليط معربة عن كلمة Paracletes ومعناه الذي له حمد كثير أي أفضل التفضيل من حمد وهو أحمد وذلك مصادق قوله تعالى على لسان عيسى: ﴿ ... وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ... ﴿٦﴾﴾ [الصف] وكان نزول الوحي على حالات:

الأولى: الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وضوحًا وظهورًا، فكان ما يراه في المنام يراه في اليقظة وذلك تمهيدًا وتمرينًا على حمل أعباء الوحي.

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه (وقلبه) من غير أن يراه.

الثالثة: كان يتمثل له الملك رجـلاً في صورة - دحية الكلبي[1] ومرة جاءه في صفة رجل أعرابي غريب.

الرابعة: كان يأتيـه مثل صلصلة الجرس، وكـان أشد حالاته عليـه حتى أن جبينه لـيتفصد عـرقًا في اليوم الشديد البـرد، وإذا أتاه وهو على راحلته بركت به لشدته.

الخامسة: كان يلقي إليه الوحي في صوت له أزير ودوي مثل دوي النحل.

السادسة: كان يأتيه الملك في صورته التي خلق عليها.

السابعة: ما أوحاه الله إليه وهو فوق السموات من فرض الصلوات وغيرها.

الثامنة: كلام الله تعالى له ومنه إليه بلا واسطة ملك.

التاسعة: العلم الذي يلقيه الله تعالى في قلبـه وعلى لسانه عند القضاء في الأحكام. وهذا للأنبياء وحي إلهي، ولعامة الناس إلهام.

وهذا كله مصداق لقول الله سـبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى].

* * *

(١) انظر المزيد في: مرآة الزمـان ٨/ ٦٩٨، ذيل الروضتين ١٦٣؛ وفيات الأعـيان ٣/ ٤٤٨، تذكرة الحفـاظ ٤/ ١٤٢٠، دول الإسلام ٢/ ١٠٣، سير أعلام النبـلاء ٢٢/ ٣٨٩، العبر ٥/ ١٣٤، البداية والنهاية ١٣/ ١٤٤، لسان الميزان ٤/ ٢٩٢، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٩٥.

٣٥ - أول ما نزل عليه الوحي وحالاته

***

فأول ما بدأ به من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء، وهو جبل بأعلى مكة وهو مشهور الآن بجبل النور فيتحنث فيه (أي يتعبد) الليالي ذوات العدد وذلك شهراً من كل سنة قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها، وذلك كان من عادة الحنفاء «أي المتبعين للحنيفية وهي دين إبراهيم عليه السلام» من قريش في الجاهلية، فكان أول ما يبدأ به حين رجوعه من حراء الطواف بالكعبة سبعًا أو ما شاء الله، ثم يأتي خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك جبريل عليه السلام في اليوم السابع عشر من شهر رمضان. فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال ﷺ: فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذت فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق]. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني.. زملوني.. فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقالت له خديجة: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا شعاب مكة ورجعوا. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي». فقالت: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم خلا الرسول ﷺ ذات يوم

فناداه جبريل قال: يا محمد، قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ثم قال له: قل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة]، ثم قال: قل: آمين، ثم فتر الوحي بعد ذلك.

* * *

٢٦ - ذهاب النبي ﷺ مع خديجة رضي الله عنها إلى ورقة بن نوفل

***

أما رسول الله ﷺ فقد آمن بما أوحي إليه من آيات ربه واطمأن إلى ما وقر في صدره من النور والحكمة، وأما خديجة فآمنت أيضًا، ولكنها أرادت أن تعلم ابن عمها ورقة لتنظر ماذا يقول، فذهبت إليه هي والنبي ﷺ ليقص عليه ما شاهد كما قصه عليها، ويتلو عليه تلك الآيات النورانية كما قرأها عليها ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ تلك الآيات التي أثرت في نفسه تأثيرًا كشف الغطاء عن قلبه فأبصر ما لم يكن يرى، فانطلقت خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما يشاء أن يكتب، وكان شيخًا قد عمي فقالت له خديجة: «يا ابن عمي اسمع من ابن أخيك»، فقال له ورقة: يا أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجي هم؟». قال: نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عُودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي.

***

٢٧ - فترة الوحي

* * *

لما فتر الوحي حزن رسول الله ﷺ حزنًا شديدًا فكاد يتردى من شواهق الجبال، وقد مضى على فترة الوحي ثلاث سنين. كما جزم ابن إسحاق، ورواه الإمام أحمد[١] عن الشعبي[٢] فبينما رسول الله ﷺ يمشي في أفنية مكة فرفع بصره إلى السماء فإذا الملك الذي جاءه «بحراء» جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعب منه ورجع إلى خديجة، وقال: «زملوني.. زملوني» فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر]، فحمى الوحي وتتابع ونزلت عليه سورة: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى]، أي ما هجرك وتركك، وما قلى أي ما أبغضك منذ أحبك ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى] أي ما ادخرته لك عندي في مرجعك إلي خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى]، ثم

---

(١) انظر المزيد في: طبقات ابن سعد ٧/ ٣٥٤، التاريخ الكبير ٢/ ٥، التاريخ الصغير ٢/ ٣٧٥، تاريخ الفسوي ٢/ ٢١٢، الجرح والتعديل ١/ ٢٩٢، حلية الأولياء ٩/ ١٦١، الفهرست ٢٨٥، تاريخ بغداد ٤/ ٤١٢، طبقات الفقهاء ٩١، طبقات الحنابلة ١/ ٤، تاريخ دمشق ٧/ ٢٨١، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٩٩، وفيات الأعيان ١/ ٦٣، تهذيب الكمال ١/ ٤٣٧.

(٢) انظر المزيد في: طبقات ابن سعد ٦/ ٢٤٦، طبقات خليفة ١٥٦، تاريخ البخاري ٦/ ٤٥٠، المعارف ٤٤٩، المعرفة والتاريخ ٢/ ٥٩٢، أخبار القضاة ٢/ ٤٣١، الجرح والتعديل ٦/ ٣٢٢، شذرات الذهب ١/ ١٢٦.

عرفه الله تعالى ما ابتدأه به من كرامته في ابتداء أمره ومنته عليه بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى].

قال النبي ﷺ: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني في (حراء) جالس على كرسي بين السماء والأرض فأخذتني هزَّة فرجعت فقلت: (زملوني.. زملوني) فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ [المدثر]، فحمي الوحي وتتابع».

قال الإمام البوصيري[1]:

ثم قام النبي يدعو إلى الله وفي الكفر نجده وإباء

أمَّا أشربت قلوبهم الكفر فداء الضلال فيهم عياء

وخديجة إذ كانت أعرف الناس به ﷺ. صدقت بكتاب ربها وآمنت وعلي ابن أبي طالب الذي كان في بيت النبي ﷺ يربيه رحمة بوالده الكثير العيال ذلك الفتى الذكي حيث كان من أعرف الناس بأخيه النبي ﷺ أيضًا صدق به وسلم وجهه لله، وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، وأبو بكر بن أبي قحافة، ذلك الرجل الذي خالط النبي ﷺ وصاحبه منذ زمن طويل آمن بآيات ربه وصدق برسوله أيضًا.

وكذلك لم يبق من أهل بيت النبي ﷺ أحد إلا وأسلم حتى زيد الذي كان يقال له في ذلك الحين زيد بن محمد أسلم هو وزوجته.

---

(١) انظر المزيد في: فوات الوفيات ٢/ ٢٠٥، الوافي بالوفيات ٣/ ١٠٥-١١٣، خطط مبارك ٧/ ٧٠، آداب اللغة ٣/ ١٢٠.

وقام أبو بكر يبشر بدين الله خفية، فأسلم على يديه عثمان بن عفان[1]، والزبير بن العوام[2]، وعبد الرحمن بن عوف[3]، وسعد بن أبي وقاص[4]، وطلحة بن عبيد الله[5]، وأبو عبيدة عامر بن الجراح[6]، وهو من سادات قريش،

(١) انظر المزيد في: طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٥٠٧، شرح نهج البلاغة ٢/ ٦١، البدء والتاريخ ٥/ ٧٩ و١٩٤-٢٠٨، تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٣٩، حلية الأولياء ١/ ٥٥، تاريخ الطبري ٥/ ١٤٥، صفة الصفوة ١/ ١١٢، تاريخ الخميس ٢/ ٢٥٤، المحبر ٣٧٧، الإسلام والحضارة العربية ٢/ ١٣٨ و٣٧٣.

(٢) انظر المزيد في: تهذيب ابن عساكر ٥/ ٣٥٥، الجمع ١٥٠، صفة الصفوة ١/ ١٣٢، حلية الأولياء ١/ ٨٩، ذيل المذيل ١١، تاريخ الخميس ١/ ١٧٢، البدء والتاريخ ٥/ ٨٣، الرياض النضرة ٢٦٢-٢٨٠، خزانة البغدادي ٢/ ٤٦٨ ثم ٤/ ٣٥٠.

(٣) انظر المزيد في: صفة الصفوة ١/ ١٣٥، حلية الأولياء ١/ ٩٨، تاريخ الخميس ٢/ ٢٥٧، البدء والتاريخ ٥/ ٨٦، الرياض النضرة ٢/ ٢٨١-٢٩١، الجمع ٢٨١، الإصابة ت ٥١٧١.

(٤) انظر المزيد في: الرياض النضرة ٢/ ٢٩٢-٣٠١، تاريخ الخميس ١/ ٤٩٩، تهذيب التهذيب ٣/ ٤٨٣، البدء والتاريخ ٥/ ٨٤، الجمع ١٥٧، صفة الصفوة ١/ ١٣٨، حلية الأولياء ١/ ٩٢، تهذيب ابن عساكر ٦/ ٩٣، نكت الهميان ١٥٥، الكنى والأسماء ١/ ١١، طبقات ابن سعد ٦/ ٦، الإصابة ت ٣١٨٧.

(٥) انظر المزيد في: طبقات ابن سعد ٣/ ١٥٢، تهذيب التهذيب ٥/ ٢٠، البدء والتاريخ ٥/ ٨٢، الجمع ٢٣٠، طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٣٤٢، الرياض النضرة ٢/ ٢٤٩-٢٦٢، صفة الصفوة ١/ ١٣٠، حلية الأولياء ١/ ٨٧، ذيل المذيل ١١، تهذيب ابن عساكر ٧/ ٧١، المحبر ٣٥٥، رغبة الأمل ٣/ ١٦ و٨٩، اللباب ٢/ ٨٨.

(٦) انظر المزيد في: طبقات ابن سعد ٥/ ١٤٠، حلية الأولياء ١/ ١٠٠، البدء والتاريخ ٥/ ٨٧، تاريخ ابن عساكر ٧/ ١٥٧، صفة الصفوة ١/ ١٤٢، تاريخ الخميس ٢/ ٢٤٤، الرياض النضرة ٢/ ٣٠٧.

وهو أول من آمن من الناس بالنبي ﷺ قبل الرسالة وبعدها. ثم أسلم ناس آخرون منهم بلال[1]، وعمار بن ياسر[2]، وغيرهم، وأسلم نساء كثيرات.

***

(١) انظر المزيد في: طبقات ابن سعد ٣/ ١٦٩.

(٢) انظر المزيد في: الإصابة ٢/ ٤٦٩، المحبر ٢٨٩ و٢٩٦، تاريخ الطبري ٦/ ٢١، حلية الأولياء ١/ ١٣٩، السالمي ١/ ٢٣٤، ذيل المذيل ١١، صفة الصفوة ١/ ١٧٥، خلاصة تذهيب الكمال ١٣٧.

٣٨ - الدعوة إلى الإسلام سراً

* * *

عندما نزل الوحي على سيدنا محمد ﷺ لم يؤمر بتبليغ الرسالة للناس، بل كان الأمر في ذلك قاصراً على إبلاغ رسالة ربه إليه وتمجيده جل وعلا بما جاء في أوائل سورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ... ۝١﴾ [العلق]. ولما كان أهل مكة الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ بدواً جاهلين متخلقين بأخلاق تغلب عليها العزة والأنفة، وفيهم سدنة الكعبة والقوام على الأوثان والأصنام التي كانت مقدسة عند سائر العرب يعبدونها ويتقربون إليها بالذبائح والهدايا ولا يعرفون ما جاء به رسول الله ﷺ ولا ينقادون إليه بسهولة، كان من حكمة الله تعالى تلقاء ذلك أن تكون الدعوة إلى ديون الإسلام في مبدأ أمرها سرية لئلا يفاجئوا بما يهيجهم وينفروا منه ويكون سببًا لشن الغارات والحروب وإهراق الدماء.

والداعي صلوات الله وسلامه عليه، لم يكن له إذ ذاك ناصر ولا معين من خلق الله. وتلك سنة الله تعالى في خلقه ومن ربط الأسباب بالمسببات، فلم يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالجهر بالدعوة من قبل أن يهيئ له أسباب النصر والفوز على من يقاومه في ذلك وخصوصًا أن قومه الذين بعث فيما بينهم كانوا من أشد الناس تمسكًا بمعبوداتهم وحرصًا على ما كان عليه آباؤهم.

ومن الناس من هو عظيم في قومه رفيع الدرجة فيما بينهم، ومنهم من هو دون ذلك، فالعظماء من الناس تمنعهم أنفتهم من إجابة الداعي لهم إلى مفارقة علية جماعتهم، ونبذ ما بينهم من الروابط القومية والعادات المتأصلة، إذ كل فرد منهم يرى أن انفراده بالرضوخ للغير ينقصه في نظر قومه، فإذا فوجئ هؤلاء الأعاظم بإعلان الدعوة إلى غير ما كانوا عليه ظهروا بمظهر المنكر المعاند وقاوموا

الدعوة بجملتهم. وغير العظماء تبع للعظماء والرؤساء فإذا دعوا إلى مخالفة ما عليه أولئك العظماء جهاراً لم يجسروا على إجابة الداعي متى لم يسبقهم إلى ذلك أفراد من العظماء.

فإعلان الدعوة يحتاج إلى مقدمة يستأنس بها الفريقان وما ذلك إلا باجتذاب أفراد من هؤلاء وهؤلاء خفية حتى إذا تكونت منهم جماعة وأعلنت بهم الدعوة سهل على غيرهم أن ينبذوا تقاليد قومهم ويتبعوا ما يدعوهم إليه الداعي مما تنشرح له صدورهم ولا تأباه فطرهم.

وقد ابتدأ رسول الله ﷺ هذه الدعوة الإفرادية بمن يعرفهم ويعرفونه ويطمئن إليهم ويثق بهم ويتوسم فيهم الخير وحب الحق من أهله وعشيرته، فبادر إلى التصديق والإيمان به أفراد قليلون كانوا يخفون إسلامهم عمن عداهم ويقيمون صلواتهم وما أمروا به من العبادات خفية لا يظهرون بذلك في مجامع قريش، بل كان الواحد منهم يختفي بعبادته حتى عن أهله وولده وكانوا يجتمعون بالنبي ﷺ وحدانًا جماعات خفية ويتحاشون الظهور ولا يجسرون عليه. ولما زاد عددهم على الثلاثين اختار لهم النبي ﷺ داراً فسيحة من دورهم يجتمعون فيها معه لإرشادهم وتعليمهم أمور دينهم، وكان أول من بادر إلى الإسلام خديجة بنت خويلد زوجته ﷺ وابن عمه علي بن أبي طالب وعمره إذ ذاك عشر سنين، وكان مقيمًا عند رسول الله ﷺ، وزيد بن حارثة الذي كان مملوكًا للسيدة خديجة ووهبته للنبي ﷺ وأعتقه وتبناه وزوجه مولاته وحاضنته أم أيمن. وقد كانت أيضًا من السابقات إلى الإسلام. وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان صديقًا للنبي ﷺ قبل النبوة يعرف صدقه فعندما أخبره برسالة الله إليه أسرع بالتصديق وقال: «بأبي أنت وأمي.. أهل الصدق أنت.. أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله».

وقال النبي ﷺ في حقه: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة

غير أبي بكر»، وكان رضي الله عنه عظيمًا في قومه يقتدي برأيه، فدعا إلى الإسلام من توسم فيهم الإجابة فأجاب عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وأتى بهم إلى النبي ﷺ فأسلموا ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن الجراح وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد العدوي، وأبو سلمة المخزومي، وخالد بن سعيد بن العاص، وعثمان بن مظعون، وأخواه قدامة وعبيد الله والأرقم بن أبي الأرقم الذي كانوا فيما بعد يجتمعون في داره، وكل هؤلاء من بطون قريش.

ومن غيرهم صهيب الرومي وعمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري وعبد الله بن مسعود وغيرهم. ويعلم من هذا أن بعض هؤلاء من أشراف قريش وساداتهم، وبعضهم من أبناء الأشراف، وبعضهم من أوسطهم نسبًا، والبعض من حلفائهم ومواليهم، وليسوا كلهم كما زعم بعض المؤرخين من الضعفاء والأحداث والموالي، وقد دخلوا في الإسلام جماعة وفرادى بغير إكراه ولا إجبار كما يزعم أعداء الإسلام.

بل كان الإكراه والإجبار واقعًا عليهم من المشركين ليخرجوهم منه كما سيأتي تفصيله. فقد تصدى عظماء قريش لتعذيب من آمن من هؤلاء سواء كانوا أبناءهم أو نساءهم أو حلفاءهم أو مواليهم بكل أنواع العذاب ولم يزدهم ذلك إلا تثبيتًا في دينهم وتمكينًا في إيمانهم. فصبروا على ذلك السنين الطوال، لكونهم لم يكن لهم من يدرأ عنهم سوء العذاب. حتى مكنهم الله تعالى من أعدائهم، ونصرهم على من خالفهم، وأصبحوا ومن لحقهم في الإسلام سادة الأمم وقادتها.

وهذه هي الحكمة العظمى في الصبر على المكاره ﴿... **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿١٠﴾﴾ [الزمر]، وقد استمرت هذه الدعوة سرية ثلاث سنين،

أسلم فيها جماعة لهم شأن في قريش وتبعهم غيرهم، حتى إذا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به الناس، جاء وقت الجهر بالدعوة.

* * *

٣٩ - أول ما فرض من أركان الإسلام

***

أول ما فرضه الله من أركان الدين الإنذار بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء]، وإنما كان ذلك الإنذار بالدعاء إلى التوحيد، ثم فرض قيام الليل وذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾﴾ [المزمل]، ثم أمر الصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء]، ثم شرع الوضوء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ... ﴿٦﴾﴾ [المائدة]، وذلك أن جبريل عليه السلام تبدى لرسول الله ﷺ في أحسن صورة وأطيب رائحة بأعلى مكة فقال: يا محمد، إن الله يقرئك السلام ويقول أنت رسولي إلى الجن والإنس فادعهم إلى قول لا إله إلا الله. ثم ضرب برجله الأرض بنبعت عين ماء فتوضأ منها جبريل ثم أمره أن يتوضأ، وقام جبريل يصلي، وأمره أن يصلي، فعلمه الوضوء والصلاة، ورجع رسول الله ﷺ لا يمر بحجر ولا مدر ولا شجر إلا سلم عليه، حتى أتى خديجة رضي الله عنها فلما أخبرها غشى عليها من الفرح، ثم أمرها فتوضأت وصلى بها، كما صلى به جبريل عليه السلام، فكان ذلك أول فرضها ركعتين.

وهذه الفريضة هي صلاة الليل. أما الصلوات الخمس إنما فرضت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة، ولا خلاف في ذلك بين العلماء، فُرضت خمسًا كما هي الآن وفي عدد الركعات لقول الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ

الْوُسْطَىٰ ... ﴿٢٣٨﴾ [البقرة]، فإنه يدل على فريضتها وعلى كونها خمسًا لأنه أمر بالمحافظة على جميع الصلوات وعطف عليها الصلاة الوسطى، وأقل جمع يتصور معه وسطى هو الأربع.

* * *

٣٠ - إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ

* * *

قال ابن إسحاق: حدثني رجل من أسلم، كان واعية أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره فلم يكلمه رسول الله ﷺ ومولاه لعبد الله بن جدعان بن عمرو ابن كعب بن سعد بن التيم بن مرة في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحًا قوسه راجعًا من قنص له وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى ثي قريش وأشد شكيمة، فلما مر بمولاه ابن جدعان وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته قالت له: يا أبا عمارة: لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفًا من أبي الحكم بن هشام، وجده ههنا جالسًا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته فخرج يسعى ولم يقف على أحد، معدًا لأبي جهل إذا لقيته أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرد ذلك عليَّ إن استطعت. فصار أبو جهل يتضرع إليه ويقول سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا.

فقال حمــزة: ومن أسفة منكم، تعبدون الحــجارة من دون الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

فقام رجال من بني مخزوم عشيرة أبي جهل لينصروا أبا جهل فقالوا لحمزة: ما نراك يا حــمزة إلا قد صبأت. قــال حمزة: وما يمنعنــي وقد استبان لي فــيه أنه رسول الله والذي يقوله حق، والله لا أفزع فامنعوني إن كنتم صادقين.

فقال أبو جهل لعنة الله عليه: دعوا أبا عمــارة فأني والله قد سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا.

وتم حمزة رضي الله عنه إسلامه، وقــوي بإسلامه جانب المسلمين، وكانت وطأة المشركين شديدة على مــن أسلم لأن العناد كان مستحكمًــا في رءوسهم وكان أصحاب الرسول يجدون في بث الدعوة ويحاولون التــفاهم مع قومهم وعشيرتهم ولكن هؤلاء كانوا يصرون على أتباع ما كان عليه آباؤهم من الشرك وعبادة الأوثان والأصنام.

فلما أسلم حمزة علمت قريش أن رسـول الله ﷺ قد عز وامتنع وأن حمزة سيــمنعه، فكفوا عن بعض ما كــانوا يفعلون من الشر والكيــد والإيذاء لرسول الله ﷺ.

* * *

٣١ - إسلام الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه

* * *

لما زاد اضطهاد قريش للمسلمين هاجر بعضهم إلى الحبشة، وبعد ذلك بقليل فتح القرآن فتحًا جديدًا كان على قريش أشد من وقع النبال، فقد غزا حصنًا من أشد حصونها مناعة، ومعقلاً من أقوى معاقلها صلابة فتداعى أمامه في ثوان معدودات: عمر بن الخطاب ذو القلب الجبار الذي كان من أشد قريش غلظة على رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه الذين تخلفوا معه بمكة ليقتل محمدًا عليه الصلاة والسلام، هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها وعاب دينها فلقيه نعيم بن عبد الله فسأله أين يذهب؟ فقال: لأقتل محمدًا، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك منه يا عمر أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: زوج أختك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما، فرجع عمر مغضبًا وقصد بيت أخته، وقرع الباب فقيل: من هذا؟ قال: ابن الخطاب. ففزع من في البيت وخاصة أنه كان بيدهم صحيفة فيها سورة طه ليقرأها خباب بن الأرت لسعيد وفاطمة، فاختفى خباب، وأخفت فاطمة الصحيفة تحت فخذها، حتى دخل ابن الخطاب قال: ما هذه الهينمة التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئًا. قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها فضربها فشجها، فلما فعل ذلك ورأت أخته الدم بكت، وقالت: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل فقد أسلمت، فدخل

وهو مغضب، فجلس على السرير فنظر فإذا بكتاب في ناحية البيت فقال: ما هذا الكتاب؟ أعطينيه حتى أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ﷺ، وكان عمر قارئًا: فقالت أخته: لا أعطيكه لست من أهله أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تتطهر وهذا ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة]، فما زال بها حتى قبلت أن تعطيه الصحيفة بعد أن اغتسل وأخذت منه ميثاقًا أن لا يتلفها وناولته الصحيفة فإذا فيها، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه]، ويروى أنه كان فيها غير ذلك. قال عمر رضي الله عنه: فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي، ثم رجعت إلى نفسي فإذا فيها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الحديد]، وسورة الحشر الآية ١، وسورة الصف الآية ١. قال: فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ثم رجعت إلى نفسي حتى بلغت: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ... ﴿٧﴾﴾ [الحديد]، حتى بلغت إلى قوله: ﴿... إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد]. فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ونطق بالشهادتين. وعندئذ خرج إليه خباب لما أنس إليه تحوله بالآيات من القرآن من الغلظة إلى اللينة وأحس منه الإيمان. فسأله عمر أن يدله على مكان محمد ﷺ، فقصد توًا إلى أعدى أعدائه ينطقه بالشهادتين خاشعًا وصار للإسلام أعز نصير لا يعرف في الحق لومة لائم. ولما أسلم عمر رضي الله عنه خرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشارًا بما سمعوه وحمدوا الله عز وجل، ثم قال: يا ابن الخطاب، أبشر فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الإثنين فقال: «اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين»، ويروى بأحد العمرين، إما عمرو بن هشام، وإما عمر بن الخطاب، وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ قد استجيبت لك فأبشر.

قال عمر رضي الله عنه: فلما عرفوا مني الصدق، قلت لهم: أخبروني بمكان رسول الله ﷺ فقالوا: هو في بيت في أسفل الصفا، وصفوه فخرجت حتى

قرعت البـاب قيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب. قـال: وقد عرفـوا شدني على رسول الله ولم يعلموا بإسلامي.

فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب فقال رسول الله ﷺ: «افتحوا له فإنه إن يرد الله به خيـراً يهده»، ففتحـوا لي وأخذ رجلان بعضـدي حتى دنوت من النبي ﷺ، فقال: «أرسلوه» فأرسلوني فجلست بين يديه فأخـذ بمجمع قميصي فجذبني إليه، ثم قـال: «أسلم يا ابن الخطاب، اللهم اهده»، قال: قلت: أشـهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله ﷺ فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة.

قال عـمر رضي الله عنه: لما أسلمت تلك الليلة تذكـرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عـداوة حتى إتيـه فأخبـره أني أسلمت. قال: قلـت: أبو جهل. فأقـبلت حين أصبـحت حتى ضـربت عليـه بابه، فخـرج إليَّ أبو جهل. فـقال: مرحبًا، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخـبرك إني آمنت بالله ورسوله محمد وصدقت بما جاء، فـضرب الباب في وجهي، وقـال: قبحك الله وقبح مـا جئت به، فكان إسلام عمر ضربة قاضية على أبي جهل.

* * *

٣٢ - الجهر بالدعوة

* * *

بعد أن مضى على الأمر بالدعوة سراً ثلاث سنين، كثر دخول الناس في دين الإسلام من أشراف القوم، ومواليهم ورجالهم ونسائهم، وفشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به الناس فأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالجهر بالدعوة، وأنزل عليه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر]، وهو من صدع الزجاج أي كسره وشقه، قال تعالى: ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق] أي الشق، فبادر بامتثال أمر ربه، وأعلن لقومه الدعوة إلى دين الله تعالى، وصعد إلى الصفا ونادى بطون قريش، فلما اجتمعوا قال لهم: «إن الرائد لا يكذب أهله، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا. فقال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، ثم أنزل الله تعالى على رسوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء]، فجمع من بني عبد مناف نحو الأربعين وصعد على الصفا وقال لهم: «ما أعلم إنسانًا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به قد جئتم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعًا ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف يا بني زهرة حتى عدد الأفخاذ من قريش. إن الله أمرني أن أنذر عشيرتك الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبًا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله. فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا

ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد]. فأغضبت هذه السورة أبا لهب أيما إغضاب.

روي عن طارق المحاربي أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في السوق يقول: أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل خلفه يرميه بالحجارة، وقد أدمى عقبيه، وقال: لا تطيعوه فإنه كذاب، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد وعمه أبو لهب.

أما امرأته فهي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية، فكانت في غاية العداوة لرسول الله ﷺ، وكانت تضع الشوك في طريقه.

واستمرار رسول الله ﷺ في علان الدعوة إلى الله وتوحيده حتى ظهر لقومه أن هذه الدعوة فيها عيب معبوداتهم الباطلة وتسفيه عقول من يعبدونها، فنفروا منه وأظهروا له العداوة، فذهب جماعة منهم إلى عمه أبي طالب، وطلبوا منه أن يمنعه من عيب آلهتهم، وتضليل آبائهم وتسفيه عقولهم أو يتنازل عن حمايته، فردهم أبو طالب رداً جميلاً. واستمر رسول الله ﷺ يصدع بأمر الله تعالى وينشر دعوته، ويحذر الناس من عبادة الأوثان. ولما لم يطيقوا الصبر على هذه الحال، عادوا إلى أبي طالب، وطلبوا منه أن يكفه، أو ينازلوه وإياه في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، فعظم الأمر على أبي طالب، وكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فقال له النبي ﷺ: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت، حتى يظهره الله أو أهلك دونه»، ثم بكى رسول الله ﷺ وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً. ولما رأت قريش تصميم أبي طالب على نصرة رسول الله ﷺ واتفاق بني هاشم وبني المطلب في ذلك. وكان وقت الحج قد قرب وخافوا

من تأثير دعوته في نـفوس العرب الوافدين لزيارة الكعبـة اجتمعوا وتداولوا فـيما يصنعـون في مقاومـة ذلك، ثم اتفقـوا على أن يذيعوا بين الوافـدين إلى مكة من العرب أنه ساحـر جاء بقول هو سحر، يفرق بين المرء وأبيـه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته. فلما جاء موسم الحج وصاروا يجلسون بالطرق فلا يمر بهم أحد إلا حذره إياه وشنعوا عليه وصغروا ولكن الله تعالى أراد أن يكون ذلك سببًا في شيوع دعوته ﷺ في بلاد العرب كلها.

* * *

٣٣ - إيذاء قريش للرسول ﷺ وللمؤمنين

***

لما رأت قريش أنهم لم يفلحوا في إرجاع أبي طالب عن نصرة رسول الله ﷺ وحمايته وأنه قد انضم إليه في ذلك غيره، وأن دعوة رسول الله ﷺ في انتشار، وأن المؤمنين في ازدياد، لجأوا إلى طريقة الأذى وإيذاء صحبته خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة، وكان أبو جهل يحاول منع رسول الله ﷺ من الصلاة عند الكعبة، وقد أراد مرة أن يرض رأسه ﷺ وهو ساجد، ولكن الله تعالى حفظه منه، فإنه لما قرب منه خانته قواه وسقط من يده الحجر الذي أعده لذلك ورجع إلى قومه مذعوراً ممتقع اللون وهو يقول، إنه قد تعرض لي فحل ما رأيت مثله قط، هم بي ليأكلني، وقد تمثل جبريل عليه السلام بهذه الصورة، حفظًا لرسول الله ﷺ.

وتمادى ذلك الفاجر وأعوانه، ومنهم عقبة بن أبي معيط[1] في التعرض لرسول الله ﷺ والله تعالى يحفظه ويرد كيدهم في نحورهم.

وكان أبو لهب وهو عمه عليه الصلاة والسلام أشد عليه من الأباعد، وكان من المؤذين له ولمن تبعه العاص بن وائل السهمي[2]، والد عمرو بن العاص،

---

(١) هو عقبة بن أبان بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس من مقدمي قريش في الجاهلية كنيته أبو الوليد وكنية أبيه أبو معيط. كان شديد الأذى للمسلمين عند ظهور الدعوة فأسروه يوم بدر وقتلوه ثم صلبوه وهو أول مصلوب في الإسلام، مات سنة ٢هـ/ ٦٢٤م.

انظر المزيد في: الكامل في التاريخ ٢/ ٢٧، الروض الأنف ٢/ ٧٦.

(٢) انظر المزيد في: المحبر ١٣٣ و١٥٨ و١٦١ و١٧٠ و١٧٦، جمهرة أنساب العرب ١٥٦.

والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن عبد المطلب الأسري ابن عم السيدة خديجة زوج النبي ﷺ، والوليد بن المغيرة عم أبي جهل والنضر بن الحارث العبدري[1]، ولم يسلم من هؤلاء أحد، بل أهلكهم الله تعالى على الكفر، ما بين قتيل في غزوة بدر وفريسة بأنياب وحش فلاة، ومعذب بأشد الأمراض وأشنعها والله عزيز ذو انتقام.

وقد اشتدت قريش على المستضعفين من المؤمنين فسامتهم سوء العذاب، وتفننت في صنوف الإيذاء مما يدل على عظيم قسوتها وإمعانها في الكره للمسلمين.

فمن الذين عذبوا في ذلك: بلال بن رباح الحبشي كان أمية بن خلف الجمحي[2] سيده فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره ويقول لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، وبلال لا يفتر يقول: أحد.. أحد. فاشتراه أبو بكر وأعتقه.

ومنهم عمار بن ياسر كانوا يخرجونه وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء ومر بهم الرسول ﷺ فقال لهم: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»،

---

(١) انظر المزيد في: الكامل في التاريخ ٢/ ٢٦، زهرة الآداب ١/ ٣٣-٣٤، معجم البلدان ١/ ١١٢، مطالع البدور ١/ ٣٣٢، جمهرة أنساب العرب ١١٧، نسب قريش ٢٥٥، البيان والتبيين ٤/ ٤٣-٤٤، نهاية الأرب ١٦/ ٢١٩-٢٢٠ و٢٧١، المحبر ١٦٠-١٦١، الجمحي ٢١٣-٢١٤.

(٢) انظر المزيد في: سيرة ابن هشام ٢/ ٥٢، الكامل في التاريخ ٢/ ٤٨، عيون الأثر ١/ ٢٥٩.

ومنهم خباب بن الأرت وصهيب بن سنان الرومي[1]، وعامر بن فهيرة مولى الطفيل بن عبد الله ولبيبه جارية بني مؤمل.

* * *

(١) انظر المزيد في: طبقات ابن سعد ٣/ ١٦١، تاريخ ابن عساكر ٦/ ٤٤٦، صفة الصفوة ١/ ١٦٩، حلية الأولياء ١/ ١٥١، تاريخ الإسلام ٢/ ١٨٥، الإصابة ت ٤٠٩٩.

٣٤ - قريش تبذل للرسول أموالها لترده عن دينه إلى دينها

* * *

لما رأى كفار قريش أن طريق الأذى الذي لجأوا إليه لم يجدهم نفعًا فيما يريدون، اجتمعوا للشورى فيما يعملون مع رسول الله ﷺ لإرجاعه عن أمره. فاتفقوا على أن يبعثوا إليه عتبة بن ربيعة، وكان من عظمائهم ليعرض عليه أمورًا، لعله يقبلها ويرجع عن هذه الدعوى، فذهب إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي في المسجد، وقال له: يا ابن أخي إنك من خيارنا حسبًا ونسبًا وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، وعبت إلهتهم ودينهم، ومن مضى من آبائهم، فإن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه. فلما فرغ من كلامه ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «قد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاسمع مني». قال: أفعل. قال: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾ [فصلت]، حتى بلغ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩﴾ [فصلت]، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه: فلما سمعها عتبة منه أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يستمع منه ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد». ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد

ما سمعت فأنت وذاك. فرجع عتبة إلى قومه وقال لهم: يا معشر قريش لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر فأطيعوني وامتنعوا عن الرجل، فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعته شأن، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزّه عزكم، فقالوا: لقد سحرك محمد والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

* * *

٣٥ - قريش تحتال على الرسول ﷺ ليتبع دينها

* * *

ولما لم تنفعهم هذه الحيلة عمدوا إلى حيلة أخرى، فعرضوا على الرسول ﷺ أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركون في عبادته، فأنزل الله تعالى عليه سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]، فلما يئسوا من ذلك طلبوا منه أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد، فأنزل الله تعالى: ﴿... قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ... ۝١٥﴾ [يونس]، ولما رأوا أن كل ذلك لم ينفعهم شيئًا لجأوا إلى طرق التعجيز واستمروا يسألون رسول الله ﷺ أسئلة تعنت وعناد مثل قولهم له: ﴿... لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ... ۝٩٣﴾ [الإسراء]، وكان يجيبهم عن ذلك بما يأمره الله تعالى به مثل قوله تعالى: ﴿... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ۝٩٣﴾ [الإسراء].

* * *

٣٦ - تحدي قريش بالقرآن

* * *

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء]، لقد تحدى القرآن العرب أرباب الفصاحة والبيان أن يأتوا بمثله ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور]، فعجزوا فخفف عليهم الأمر وطلب منهم عشر سور ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود] فعجزوا فهون عليهم الأمر طالبًا سورة واحدة ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة]، فصمتوا فتحدى الإنس والجن على أن يتظاهروا ويأتوا بمثله ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء]، فظل الإنس والجن عاجزين، وسيظلون عاجزين فإنه معجزة الدهور تمر الأيام وتبلى الليالي وهو باقٍ على جدته: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]، فهو باق يتحدى الأجيال، تحدي الماضي فقهره والحاضر فخذله، وسوف يقف المستقبل أمامه خاشعًا مكتوف اليدين، يسمع تحديه، وهو صامت لجلاله يرتد إليه بصره إذ يبهره علاه ويغمره سناه ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]، ولقد تحدى القرآن قريشًا وتجدته، فظفر بها وما غلبته، غزا قلوبها وأنطق سادتها بالحق وهم له كارهون. فهذا شيخهم الوليد بن المغيرة يمر بالنبي ﷺ وهو يقرأ القرآن فيأتي قومه ويقول: قد سمعت من محمد آنفًا كلامًا، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن

له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه. فقالت قريش: صبأ الوليد. فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقصد إليه حزينًا وكلمه بما أحماه، فما كان من الوليد إلا أن قام وناداهم فقال: تزعمون إن محمداً شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً؟ فقالوا: لا. فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه. ففرحوا بقوله بعد أن كانوا غاضبين، وتفرقوا عنه معجبين بعد أن كانوا عليه ساخطين. ولكن قريشًا لم تهدأ ثائرتها وخشيت هذا السحر الحلال الذي ينفذ إلى أعماق القلوب، فأخذوا يجتمعون ويتشاورون فيما يفعلون إزاء هذا السيل الجارف الذي لا قبل لهم برده ولا سبيل لهم إلى دفعه. فتربصت له الفرص وظلت توقع به وبصحبه وتكيد لهم فقد بدا لها عجزها عن مقارعة الحجة والدليل بالدليل، والبرهان بالرهان.

ووقفت أمام الآيات القرآنية والبلاغة الربانية خاضعة ذليلة، بدا عليها المسكنة والمذلة، وعمد بعض من كانوا يدعون الفصاحة والقوة الكلامية إلى محاكاة القرآن فأتوا بالمضحك الهراء الذي طبعهم بطابع الخزي والعار من مثل «إنا أعطيناك العقعق، فصل لربك وارعق، إن شانئك هو الأبلق»، ومثل: «الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب طويل» ما جعلهم آية للساخرين.

***

٣٧ - هجرة الحبشة الأولى
في السنة السابعة من البعثة

* * *

لما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان، تحولوا إلى سياسة القوة التي اختارها قوم إبراهيم عليه السلام عندما عجزوا عنه حيث قالوا: ﴿... حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ... ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء]، كما في هذه السورة.

أما هؤلاء فأرادوا بالأذى على كل من أسلم رجاء صدهم عن اتباع الرسول ﷺ، ولم يتركوا بابًا إلا ولجوه فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «تفرقوا في الأرض، فإن الله سيجمعكم»[1]، فسألوه عن الوجهة فأشار عليه الصلاة والسلام بالهجرة إلى الحبشة، فعند ذلك تجهز ناس للخروج من ديارهم وأموالهم فراراً بدينهم كما أشار عليه الصلاة والسلام، وهذه هي أول هجرة من مكة وعدة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة وهم: عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وزوجه أم سلمة، وأخوه لأمه أبو سبره بن أبي رهم العامري، وزوجه أم كلثوم، وعامر بن ربيعة، وزوجه ليلى بنت أبي خثيمة، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وزوجه سهلة بنت سهيل، وعبد الرحمن ابن عوف، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وسهيل بن بيضاء، والزبير ابن العوام، وجلهم من قريش، وكان عليهم فيما روى ابن هشام: عثمان بن مظعون فساروا على بركة الله عز وجل. لما انتهوا إلى البحر استأجروا سفينة

(١) ورد في السيرة النبوية لابن هشام، ومختصره السيرة لمغلطاي، والكامل في التاريخ لابن الأثير.

أوصلتهم إلى مقصدهم فأقاموا آمنين مما لحق بهم من أذى المشركين، ولم يبق مع النبي ﷺ إلا القليل. فلما قدموا الحبشة أكرم النجاشي وفادتهم وأقاموا عنده آمنين بقية رجب وشعبان إلى رمضان ثم بلغهم أن عظماء قريش أسلموا واصطلحوا مع الرسول ﷺ. فقالوا: هؤلاء عشائرنا الذين أسلموا أحب إلينا. فخرج جماعة منهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعثمان بن مظعون، في شوال حتى وصلوا دون مكة بساعة فلقوا ركبًا فسألوهم عن قريش، فقالوا لهم ذكر محمد آلهتهم بخير ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم]، فألقى الشيطان في أمنية قريش «تلك الفرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى» فظنوا أن النبي ﷺ تلا ذلك ضمن السورة. فلما بلغ السجدة من السورة سجدوا معه، ثم لما عاد لشتم آلهتهم عادوا بالشر. عند ذلك هموا بالرجوع إلى الحبشة ولكنهم رأوا أن يدخلوا مكة فبعضهم دخل مستخفيًا وبعضهم دخل في جوار بعض ذوي المكانة.

* * *

٣٨ - الهجرة الثانية إلى الحبشة

***

كان إسلام حمزة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما نصراً مبينًا للإسلام فما أسرع ما ذاع نبأ إسلامهما وإعزاز الدين بهما في أم القرى وما حولها، وسرى الخبر في الجزيرة ثم عبر القلزم وما كاد يصل إلى سمع المهاجرين من المسلمين إلى الحبشة حتى فرحوا وابتهجوا وعادوا أدراجهم إلى مكة، غير أنهم ما لبثوا أن وجدوا قريشًا ممعنة في إيذاء المسلمين والكيد لهم. فلما ضاقت الحيل بهم عرضوا على بني عبد مناف الذين منهم الرسول ﷺ دية مضاعفة ويسلمونه لهم فأبوا عليهم ذلك. ثم عرضوا على أبي طالب أن يعطوه سيدًا من شبانهم يتبناه ويسلم إليهم ابن أخيه. فقال: عجبًا لكم تعطوني ابنكم أخذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ فاشتد ضغط المشركين وفوتهم على المسلمين وسطت عليهم عشائرهم ولقوا منهم أذى وعنتًا شديداً. عند ذلك أمر جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة حتى يساعد بعضهم بعضًا على الاغتراب. فهاجر معظمهم وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة وكان من الرجال: جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عميس، والمقداد بن الأسود، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن جحش وامرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وتوجه لهم الذين أسلموا من جهة اليمن، وهم الأشعريون أبو موسى وبنو عمه، ولما رأت قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد، بهدايا إلى النجاشي ليسلم المسلمين. فرجعا شر رجعة ولم ينالا من النجاشي إلا إهانة لما خاطبوه به من أخفار ذمته في قوم لاذوا به.

وفي القـرآن الكريم آيات صريحـة في الهجـرة فمنهـا قول الله عـز وجل: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء]، بل فيها ذم لترك الهـجرة ووعيد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء].

***

٣٩ - حصار بني هاشم والصحيفة

***

فت في عضد القرشـيين استقرار المسلمين في الحبشة فـائتمروا بالذين مكثوا في مكة أن يكتـبوا كتـابًا يتعـاقدون فيـه على بني هاشـم وبني عبـد المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخـالطوهم ولا يقبلوا منهم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة أبدًا حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل أو يقاطعوهم مقاطعة تامة، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة فـي غرة المحرم من السنة السابعة من مبعثه ﷺ وكتب الصحيـفة بغيض بن عامر، فدعا عليـه الرسول ﷺ فشلت يده وانحاز بنو المطلب بن عـبد مناف إلى أبي طالب، في شـعبه مع بنـي هاشم، وخرج أبو لهب إلى قريش وظاهرهم على بني هاشم وبني المطلب وقطعوا عنهم الميرة والمادة، فكانوا لا يخـرجون إلا من مـوسم إلى موسم حـتى بلغوا الجـهد، وسـمع بكاء صبيـانهم من الجوع من وراء الشعب، وقريش مـا بين راضٍ عن ذلك وبين كاره، فأقـاموا ثلاث سنين فنيت فيـها أموال أبي طالب وأمـوال خديجة وصـارا إلى حد الضر والفاقـة، ثم سلط الله الأرضة على الصحيفة فـأكلتها ولم تبق إلا اسم الله. وأطلع الله رسوله على ذلك فأخبر أبا طالب بذلك، فلما اطلعت قريش على ذلك سعى خمسة من رجالهم وقام المطعم بن عدي فشقها وعاد بنو هاشم إلى مساكنهم وصرف الله عنهم أذى قريش.

***

٤٠ - وفاة أبي طالب عم النبي ﷺ

***

لما مرض أبو طالب مرضه الذي توفي فيه جمع وجوه قريش فقال: يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه، وإني أوصيكم بمحمد خيرًا فإنه الأمين في قريش والصديق في العرب، والجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وايم الله لكأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف، والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصار رؤساء قريش وصناديدها أذنابًا، وصارت دورها خرابًا وضعفاؤها أربابًا، وإذا أعظمهم عليه، أحوجهم إليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد منحته العرب ودادها، وأصفت له فؤادها وأعطته قيادها، يا معشر قريش كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة، ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي. ثم لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله. فقال له أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزالا به حتى كان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب، هذه رواية البخاري. وأما رواية ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أتى رسول الله ﷺ أبا طالب في مرضه قال له: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة استحل بها لك الشفاعة يوم القيامة. قال: يا ابن أخي لولا مخافة السبة علي وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعًا من الموت لقلتها لا أقولها إلا لأسرك بها، قال: فلما تقارب من أبي طالب الموت،

نظر العباس إليه وهو يحرك شفتيه قال: فأصغى إليه بأذنه قال: فقال: يا نبي الله والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها. قال: فقال رسول الله ﷺ لم أسمع. ومن شعر أبي طالب في ذلك:

ودعوتني وعلمت أنك صادق ... ولقد صدقت فكنت قبل أمينا

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

وفيه نزل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... ﴿٥٦﴾﴾ [القصص]، وقد حزن رسول الله ﷺ لموته كافرًا لأنه رباه وكان به برًا. وقد قيل إنه أخف أهل النار عذابًا يكون في ضحضاح من نار تغلي منه رأسه.

وأما أولاده فكلهم أسلموا وهم جعفر الطيار وعلي بن أبي طالب وعقيل وطالب وأم هانئ وجمانة. وتوفي قبل الهجرة بثلاث سنين وله من العمر ثمانون سنة. ولما مات استغفر له الرسول ﷺ حتى أنزل الله عليه ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة].

* * *

٤١ - وفاة السيدة خديجة بنت خويلد زوج الرسول ﷺ

* * *

توفيت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها وسيدة نساء العالمين، وحبيبة سيد المرسلين بعد وفاة أبي طالب ببضعة أيام، وذلك في اليوم العاشر من شهر رمضان سنة عشر من البعثة وقيل ثلاث سنين من الهجرة وعمرها خمس وستون سنة، ودفنت بالحجون بشعب بني هاشم وهي أم أولاد رسول الله ﷺ جميعًا، ولم يلد له من عموم نسائه غيرها رضي الله عنها إلا إبراهيم فمن مارية القبطية، ونزل رسول الله ﷺ في قبرها وواراها بيده. ولم تكن صلاة الجنائز قد فرضت، فحزن عليها رسول الله ﷺ حزنًا شديداً. وكان يسمى ذلك العام عام الحزن لوفاة خديجة ووفاة عمه فيه لأنهما كانا أعظم نصير له توالت عليه المحن بعدهما. وكانت مدة إقامتها معه ﷺ خمسًا وعشرين سنة ولا تكاد تخرج من ذاكرته مدة حياته، وكانت عائشة رضي الله عنها تغار من كثرة ذكر النبي ﷺ لها. قالت عائشة رضي الله عنها: ذكر رسول الله ﷺ خديجة ذات يوم فتناولتها فقلت: عجوز كذا وكذا، قد أبدلك الله خيراً منها. قال: «ما أبدلني الله خيراً منها، لقد آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرمني ولد غيرها» قالت: والله لا عاتبتك فيها بعد اليوم، وبشرها رسول الله ﷺ بقصر في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

* * *

الدور الثالث

من حياته ﷺ

يبتدي من هجرته وينتهي بوفاته وقدره عشر سنين

***

٤٢ - مقدمة الهجرة النبوية

***

منذ ألف وثلاثمائة وثمان وثمانين سنة سجل التاريخ حادثًا عظيمًا جليل الخطر عظيم الأثر، وهو هجرة رسول الله ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة انتصاراً لدين الله واحتفاظًا بالحق أن يضيع بين قوم لم يفهموه ولم تساعدهم عقولهم المسجاة بالتقليد على معرفة ما دعوا إليه. وقد ثبت من الاستقراء العام أن الانقلابات العظيمة سبقت دائمًا بهجرة أبطالها من مواطنهم التي عاشوا فيها إلى أرض أخرى وأعظم هذه الانقلابات ما أجراه الله على أيدي الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فها هو إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام هجر وطنه في العراق، واتجه غربًا إلى فلسطين ومصر وما جاورهما ودعا إلى الله عز وجل ثم سار إلى جزيرة العرب حتى حل مكة وأقام بها البيت مع ابنه إسماعيل عليه السلام فوضع أساس التوحيد ومعرفة الدين الحق، وها هو موسى الكليم عليه السلام خرج من مصر خائفًا يترقب فوصل مدين عن طريق شبه جزيرة سيناء وهناك التقى بشعيب عليه السلام ورجع نبيًا ودعا فرعون إلى الإيمان بالله وإنقاذ بني إسرائيل فأبى، فهاجر موسى بقومه وعبر بهم البحر الأحمر، وسار تلقاء فلسطين التي وعد الله قومه ولولا هذه الهجرة ما تم ملك اليهود ولا حدث الانقلاب الكبير.

وها هو عيسى بن مريم عليه السلام ترك وطنه الناصرة وجال في أنحاء فلسطين مبشرًا ومنذرًا ومصلحًا ومرشدًا فآمن به من هداه الله إلى الحق ولو بقي في وطنه ما عرف كيف ينشر الحق ويمد رواقه ويذيع نوره. ومن قبله يوسف فارق وطنه فلسطين ونزل مصر عزيزًا مكرمًاو نبيًا من الصالحين.

وهجرة رسول الله ﷺ أعظم عمل تم في الدنيا فيه تم الانقلاب الأكبر ودخل الملايين في دين الله الذي سيكون عما قريب دين الأرض كلها، وقد بدأ الإسلام غريبًا بين أقوام عاشوا في الضلال القديم، وورثوا عن آبائهم الأولين عبادة الأصنام وفيهم جماعات ورثوا عن آبائهم شرف المنزلة وعلوا الجاه وبعد الصيت ومظاهر الرياسة فهم يخافون كل جديد يقلل شأنهم، ويحاربون كل من يضعف نفوذهم أو يستأثر ببعض الأمر دونهم، ومن ذلك أن قاوم القرشيون الدين الإسلامي أشد المقاومة، ولم يدخروا وسعًا في محاربته وإيذاء أهله، وهم كما تعلم أهل قوة وعناد وغنى ورياسة وليس من المستطاع أن يقف المسلمون الأولون «وعددهم قليل» أمام هؤلاء فاقتضت حكمة الله، حرصًا على الدين في بدئه وحفظًا لأهله. أن يترك نبيه الكريم بلد الشرك القديم ويتجه إلى بلد آخر يكون أوفر أمنًا وأكثر اطمئنانًا وأعظم راحة له ولمن معه من السابقين الأولين إلى الإسلام، فيأمن عليهم أذى المشركين ويستطيع الاتصال بغيرهم في هدوء لا يعوقه عدو ولا يعترضه مكابر أثيم.

* * *

٤٣ - بيعة العقبة أساس نجاح الهجرة

* * *

من عجيب سنن الله في الكون أن الشر قد ينتج الخير وأن المكاره قد تؤدي إلى المغانم، وربما صحت الأجسام بالعلل، كان بيثرب قبيلتان من قبائل العرب هما الأوس والخزرج، وكانت القبيلتان على ما يربطهما من صلة القربى لا تنطفئ نار العداوة بينهما ولا تقف رحى حربهم، وكانت الخزرج تفوق الأوس في العدد والعدة، ففكر الأوس في أن يفاوضوا قريشًا لعقد محالفة بينهم ليقوى بهم جانبهم ويستعينوا على حرب خصومهم، وأوفدوا منهم وفدًا إلى مكة ليتحقق هذه الغاية وما كان يعلم إلا الله أن هذا وفد الهدى والنور لا وفد الشر والخصومة، وأنه جاء لعقد الإخاء وإزالة العداء لا لتوسيع مسافة الخلف فوصل الوفد إلى مكة في الوقت الذي كان رسول الله ﷺ قد ولى فيه وجهه عن قريش وأخذ يرتقب الوافدين إلى مكة من غيرهم لعله يجد في وفد منهم ضالته، فلما علم الرسول ﷺ بمقدمهم لقيهم، ولما عرف من حديثهم ما جاءوا لأجله قال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ قالوا: وما هو؟ قال: أنا رسول الله بعثني إلى عباده أدعوهم أن يعبدوا الله وحده لا يشركوا به شيئًا، وتلا عليهم آيات من القرآن وحدثهم عن الإسلام، فلمح الرسول ﷺ في وجوههم آيات تبشر بالخير فمنهم من اطمأن قلبه لما سمعه حتى قال أحدهم إياس بن معاذ: يا قوم هذا والله خير مما جئتم له، ومنهم من صرفه عن مقالته، وقال: لقد جئنا لغير هذا وانصرفوا عائدين إلى المدينة بعد جلسة مع الرسول ﷺ كانت قصيرة في زمنها ولكنها عظيمة في أثرها فقد كان لها أثران حميدان أثر في نفس الرسول ﷺ هو أنه توسم الخير ولمح شعاع النور، وأثر في أعضاء الوفد هو أن هذه الدعوة شغلت عقولهم، فلما عادوا إلى

المدينة تحدثوا بها ورددوا ما سمعوه من الرسول ﷺ وسرى الحديث عن هذه الدعوة في أنحاء المدينة. وفي الموسم التالي وفد إلى مكة وفد من الخزرج يريدون الحج ولعلهم أرادوا أن يفاوضوا قريشًا في أن لا يحالفوا خصومهم ويحالفوهم هم وأرادوا أن يتعرفوا عن الدعوة التي سمعوها، فلما علم الرسول ﷺ بمقدمهم لقيهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم آيات من القرآن وكانوا على علم بأمر هذه الدعوة لأن وفد الأوس تحدث بها في أنحاء المدينة، ولأن اليهود في يثرب كثيراً ما تحدثوا عن بعثة نبي عربي قرب وقت ظهوره. ولحكمة يعلمها الله رقت قلوب هذا الوفد لما دعوا إليه وشرح الله صدورهم لإجابة الدعوة، والهدى هدى الله يؤتيه من يشاء.

فلما أجابوا دعوة الرسول صارحوه بأنهم تركوا قومهم في يثرب تشتعل بينهم نار العداوة والبغضاء وأنهم يرجون أن يجمعهم الله بك، وأن يؤلف بين قلوبهم بدعوتك وعاهدوه أنهم سيدعون قومهم إلى دعوتهم إليه، وأن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، وعادوا إلى المدينة وقد تركوا في قلب الرسول ﷺ إيمانًا بأن هؤلاء القوم هم أنصاره وأنهم ضالته وأخذوا ينشرون حديث الدعوة بالمدينة حتى لم تبق دار بالمدينة في دور الأوس والخزرج إلا وذكر فيها الإسلام.

وفي الموسم التالي، وقد كان قبل الهجرة بستة وثلاثة شهور، وصل إلى مكة وفد من الأوس ومن الخزرج معًا عدتهم اثنا عشر رجلاً فلقيهم الرسول ﷺ عند عقبة الجمرة وبايعوه على التوحيد والإسلام والطاعة وتسمى بيعة النساء لأن ما باعيوا عليه مذكور في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ ... ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة]، وبعد أن تمت هذه المبايعة بعث معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ويعلمهم

الإسلام، وقد كانت عودة هؤلاء النفر إلى المدينة مسلمين وعودة مصعب بن عمير معهم أول بارقة من نجاح الدعوة فاستجاب للإسلام أشراف الأوس والخزرج ولم تبق دار من دورهم إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات.

وفي الموسم الذي كان قبل الهجرة بشهور وفد إلى مكة مقرئ الأنصار بالمدينة مصعب بن عمير ومعه عدد من المسلمين عدتهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ومعهم عدد من غير المسلمين، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن موعدهم عند العقبة «عقبة الجمرة ليلاً في أواسط أيام التشريق»، وقد التقى بهم الرسول ﷺ في الموعد، وفي هذه المقابلة تمت بين رسول الله ﷺ والأنصار معاهدة، هي الأساس الذي بنى عليه نجاح الدعوة فقد أراد رسول الله ﷺ أن يزيد ثقة واطمئنانًا إلى هؤلاء الأنصار، وأن يتحقق من أن قلوبهم هي ضالته وأرضهم هي البلد الطيب الذي تثمر فيه دعوته، وقد أسفر التحليل عن طيب عنصرهم، وانجلت محنة التبر عن العرق الثمين فأراد الرسول ﷺ أخذ العهد عليهم أن ينصروه ويؤازروه ويحموه مما يحمون منه أبناءهم وأعراضهم.

فقال له الناطق بلسانهم من الخزرج: يا رسول الله خذ لنفسك ولربك ما أحببت، وأرادوا أخذ العهد على الرسول ﷺ أن لا يدعهم ويرجع لقومه إذا أظهره الله وكتب له النجاح. فقال لهم الرسول ﷺ: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»[1]، وكانت عدة الذين بايعوا في تلك الليلة سبعين رجلاً وامرأتين: نسيبة بنت كعب أم عمارة، وأسماء بنت عمرو بن عدي من بني سلمة، واختار الرسول ﷺ منهم اثني عشر نقيبًا يكونون على قومهم: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وقال لهم: أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على

(١) متفق عليه.

قومي. والنقباء هم: سعد بن عبادة، وأسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وسعد ابن خيثمة، والمنذر بن عمرو، وعبد الله بن رواحة، والبراء بن معرور، وأبو الهيثم بن التيهان، وأسيد بن خضير، وعبد الله بن عمرو بن حزام، وعبادة بن الصامت، ورافع بن مالك بن العجلان. وروي أن أسعد بن زرارة كان نقيبًا على النقباء.

وبهذه المعاهدة الصريحة والمواثيق المطمئنة صحت عزيمة الرسول ﷺ على أن يهاجر من مكة إلى يثرب، وأعلم الأنصار أنه هو وصحبه قادمون إليهم، فعاد الأنصار إلى المدينة عامرة قلوبهم بالإيمان، مشرقة وجوههم بنوره، وسرى هذا النور في أنحاء يثرب انتظاراً لمقدم الرسول ﷺ، وأمر الرسول ﷺ أصحابه أن يهاجروا إلى المدينة ويلحقوا بإخوانهم من الأوس والخزرج وقال لهم أن الله قد جعل لكم إخوانًا وداراً تأمنون بها فخرج المسلمون من مكة أرسالاً رجالاً ونساءً إلا المستضعفين الذين حيل بينهم وبين الهجرة.

رأت قريش تتابع المسلمين إلى الهجرة ففريق هاجر إلى الحبشة وفريق هاجر إلى المدينة، وأدركت أن قد صار للنبي ﷺ شيعة وأنصار، وخشيت أن يلحق بهم. فاجتمعت في دار الندوة، وهي دار بناها قصي بن كلاب لما حكم مكة، فتشاوروا فيما يفعلون برسول الله ﷺ، فأقبل عليهم إبليس في صورة شيخ نجدي، فقالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، سمعت باجتماعكم، وأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأيًا ونصحًا. فقالوا: ادخل. فقال أحدهم: أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً وتحبسوه في بيت وتشدوا وثاقه، وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون إليه منها طعامه وشرابه، وتتربصوا به ريب المنون، حتى يهلك فيه كما هلك من قبله الشعراء. فصرخ الشيخ الكبير وقال: بئس الرأي رأيتم، والله لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه وليوشكن أن

يثبوا عليكم ويقاتلوكم ويخرجوه من بين أيديكم. قال: صدق الشيخ فانظروا في غير هذا.

فقال قائل منهم: أما أنا فأرى أن تحملوه على بعير وتخرجوه من بين أظهركم، فلا يضركم ما صنع، ولا أين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه. فقال إبليس اللعين: ما هذا برأي، ألم تروا إلى حلاوة منطقه وطلاقة لسانه، وأخذ القلوب بما تسمع منه، والله لئن فعلتم هذا ليذهبن وليستميلن قلوب قوم، ثم يسير بهم إليكم فيخرجكم من دياركم. قالوا: صدق الشيخ. فقال عدو الله أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما رأي غيره، إني أرى أن تختار كل قبيلة فتًى جلداً فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه جميعًا، فيتفرق دمه في القبائل، ولا تقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعًا فيرضون بالدية. واتفقوا على هذا الرأي. ولكن الله سبحانه وتعالى أخبر نبيه وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال]. أتاه جبريل في الليلة التي اختاروها لإنفاذ خطتهم وقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي تبيت عليه، فأمر عليًا أن ينام على فراشه، ويتشح ببرده الأخضر وأن يتخلف عنه ليؤدي ما كان عند رسول الله من الودائع إلى أصحابها. وخرج رسول الله ﷺ وأخذ حفنة من تراب ثم جعلها على رءوسهم وهو يقول: شاهت الوجوه ﴿... فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس]، ثم انصرف فلم يبصروه، فلما أفاقوا من غشيتهم جعلوا يطلعون فيرون عليًا نائمًا وعليه برد الرسول فيقولون إن محمداً نائم.

* * *

٤٤ - هجرة الرسول ﷺ

***

أخبرنا يحيى بن أسعد المهاجر وأبو القاسم بن كامل وجماعة غيرهما فيما أذنوا لي روايته عنهم. قالوا: أنبأنا الحسن بن أحمد أبو علي الحداد عن أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني قال: كتب إلى جعفر بن محمد بن نصير أبو محمد الخلدي قال: أنبأنا أبو شريك محمد بن عبد الرحمن المخزومي بمكة قال: حدثنا الزبير بن بكار قال: حدثنا محمد بن الحسن بن زبالة عن جعفر بن صالح بن ثعلبة عن جده ويعلى بن سلام عن محمد بن عبد الله بن خزيمة بن ثابت أن تبعًا لما قدم المدينة وأراد إخرابها جاءه حبران من قريظة فقالا: أيها الملك انصرف عن هذه البلدة فإنها محفوظة وأنها مهاجر نبي من بني إسماعيل اسمه أحمد يخرج آخر الزمان فأعجبه ما سمع وصدقهما وكف عن أهل المدينة.

وجاء في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب».

وذكر البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ لما ذكر هذا المنام لأصحابه، هاجر من هاجر منهم قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر رضي الله عنه قبل المدينة فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي». فقال له أبو بكر رضي الله عنه: وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟. قال: «نعم». فحبس أبو بكر رضي الله عنه نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده الخبط أربعة أشهر.

قالت عائشة رضي الله عنها: بينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر رضي الله عنه في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعًا في ساعة لم يكن يأتينا فيها. قال أبو بكر: فدًا له أبي وأمي، والله ما جاء في هذه الساعة إلا لأمر. قالت: فجاء ﷺ لأبي بكر فقال: «أخرج». فقال أبو بكر رضي الله عنه: الصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟. قال رسول الله ﷺ: «نعم» قال أبو بكر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، خذا إحدى راحلتي هاتين. قال رسول الله ﷺ: «بالثمن».

قالت عائشة رضي الله عنها فجهزناهما أحث[1] الجهاز ووضعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب. فقال رسول الله ﷺ: «إن لها به نطاقين في الجنة»، فبذلك سميت ذات النطاقين. قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرًا يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبو بكر رضي الله عنه منحة من لبن من غنم فيدخل بها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل حتى ينعق بهما عامر بغلس، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدئل هاديًا ماهرًا بالهداية وهو على دين كفار قريش فأمناه، فدعا إليه راحلتهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل أسفل من عسفان، ثم عارض الطريق على امج ثم لقي الطريق

---

(١) أسرعه.

بناحيـة فنزل في خيام أم مـعبد بنت الأشـقر الخزاعـية بأسفل ثنية لفت ثم على الحرار، ثم على ثنيـة المرة، ثم استبطن مديحـة ثم محاح ثم بطن مرج مـحاح ثم مرج ذي القـصوى ثم بطن كشد ثم الأجـرد ثم ذا سلم ثم أعدا مديحـة بعهن ثم أجار القاحة ثم هبط العرج ثنية العامـر عن يمين ركوبه، ويقال بل ركوبة نفسها ثم بطن ديم حتى انتهى إلى بنـي عمر بن عوف بظاهر قباء، فنـزل عليهم على كلثوم ابن الهرم بن امرئ القيس بن الحارث وكان سيد الحي، وقد اختلف في اليوم الذي نزل فيه. وعن نجيح بن أفلح مولى بني ضمـرة قال: سمعت بريدة بن الحـصيب يخبر أنه بعث يساراً غلامه مع النبي ﷺ وأبي بكر من الحدوات قال: وهي موضع أسفل من ثنية هرشًا يدلهما على العابرين ركوبه قال يسار: فخرجت حتى صعدت الثنية رجـزت به فقلت هذا أبو القاسم: فـاستقيـمي، تعرضي مدارجًـا وسومي، تعرض الجـوار للنجوم، قال: فلما علوا ظهـر الظهيرة حضـرت الصلاة فاستـقبل رسول الله ﷺ القـبلة. فقام أبو بكر رضي الله عنه عن يمـينه وقمت عن يمين أبي بكر رضي الله عنه ودخلني الإسـلام. فدفع رسول الله ﷺ صـدر أبي بكر رضي الله عنه فأخـره وأخرني أبو بكر رضي الله عـنه فصفـفنا خلفه وصلينا ثـم خرجنا حتى قدمنا المدينة بكرة وكان يوم الإثنين. ولقى رسول الله ﷺ الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجـاراً قافلين من الشام، فكسا الزبيـر رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض وسـمع المسلمون بالمدينة بخروج رسـول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غـداة إلى الحرة ينتظرونـه حتى يردهم حـر الظهـيرة فـانقلبـوا يومًا بعـد أن طال انتظارهم فلما آووا إلى بيـوتهم رقى رجل من اليهود أطمًا من آطامـهم لأمر ينظر إليه فبـصر برسول الله ﷺ وأصحـابه مبيضين، فلم يملك اليـهودي أن قال بأعلى صوته: يا مـعشر العـرب هذا جَدكم الذي تنتظرونه. فـثار المسلمـون إلى السلاح فتلقـوا رسول الله ﷺ بظهـر الحرة فعـدل بهم ذات اليمين حـتى نزل بهم في بني

عمرو بن عوف وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول فقام أبو بكر رضي الله عنه للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتًا فطفق من جاء من الأنصار من إمن برسول الله ﷺ يحيي أبا بكر رضي الله عنه حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك. ولما أقبل النبي ﷺ إلى المدينة كان مردفًا لأبي بكر رضي الله عنه، وأبو بكر شيخ يعرف ونبي الله شاب لا يعرف. قال: فيلقى الرجل أبا بكر رضي الله عنه فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك، فيقول هذا الرجل الذي يهديني السبيل فيحسب الحاسب أنه يعني الطريق وإنما يعني سبيل الخير. ولبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه ثم ركب راحلته فصار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مربداً للتمر لسهيل، وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته هذه إن شاء الله المنزل ثم دعا رسول الله ﷺ بالغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً.

وعن عبد الرحمن بن يزيد بن حارثة قال: لما نزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهرم وصاح كلثوم بغلام له يا نجيح. فقال رسول الله ﷺ بقباء يوم الإثنين والثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وركب من قباء يوم الجمعة فجمع في بني سالم، فكانت أول جمعة جمعها في الإسلام. وكان يمر بدور الأنصار داراً داراً فيدعونه إلى المنزل والمواساة فيقول لهم خيراً ويقول: «خلوها فإنها مأمورة» حتى انتهى إلى موضع مسجده اليوم، وكان المسلمون قد بنوا مسجداً يصلون فيه، فبركت ناقته ونزل وجاء أبو أيوب الأنصاري فأخذ رحله وجاء أسعد بن زرارة

فأخـذ بزمام راحلتـه فلما خرج رسـول الله ﷺ من المسجد تعـلقت به الأنصار، فـقال: «المرء مع رحله» فنزل على أبي أيـوب الأنصاري خـالد بن يزيد بن كليب ومنزله في بني غنم بن النجار. وعن أبي عمرو بن حجاش قال: اختار رسول الله ﷺ المنازل فنزل في منزله ومـسجده فـأراد أن يتوسط الأنصـار كلها فـأحدقت به الأنصار. وقـال البراء بن عـازب: أول من قدم علينا مصـعب بن عمـير وابن أم كلثوم وكـانا يقرئان الناس ثم قدم عـمار بن ياسر وبلال ثم قدم عـمر بن الخطاب رضي الله عنهم ثم قدم رسول الله ﷺ فما رأيت أهـل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعـل الإماء يقولون قدم رسول الله فينا قـدم، قالت عائشة رضي الله عنهـا: لما قـدم رسـول الله ﷺ بالمدينة وعـك أبو بكر وبلال رضي الله عنهما. قالت: فدخلت عليهما فقلت: يا أبتِ كيف نجدك؟ ويا بلال كيف نجدك؟ فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمى يقول:

وكل امرئٍ مصبـح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

قالت رضي الله عنها: وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته فيقول:

الا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادٍ وحـولي اذخر وجليل

وهل أردن يومًا مـياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

قالت عائشة رضـي الله عنها: فجئت رسول الله ﷺ فأخبـرته فقال: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصحـحها وبارك لنا في صاعها ومدها وانقل حماها إلى الجحفة»(*). قال أهل السير: وأقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة ثلاث ليـال وأيامهـا حتى أدى عـن رسول الله ﷺ الودائع التي كـانت عنده للناس، حتى إذا فرغ مـنها لحق برسول الله ﷺ فنزل معه على كـلثوم بن الهدم، قالوا: ولم يبق بمكة من المهـاجرين إلا من حبسه أهله أو فـتنوه. أنبأنا أبو القاسم

(*) متفق عليه.

الزبرودي عن أبي علي المقري عن أبي نعيم الحافظ عن جعـفر الخواص قال أخبرنا محمد بن عبد الـرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه في قول الله عز وجل ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۝٨٠﴾ [الإسراء] قال: جعل الله مدخل صدق المدينة ومـخرج صدق مكة وسلطانًا نصيرًا الأنصار.

* * *

٤٥ - المسجد أسس على التقوى

***

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿... لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة]. حين سمع أهل المدينة بخروج رسول الله ﷺ وقدومه عليهم صاروا يخرجون جماعات إلى الحرة حتى يردهم حر الظهيرة. فانقلبوا يومًا بعد أن طال انتظارهم فلما آووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أطم (تل) من آطامهم لبعض شأنه، فأبصر رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال اليهودي بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم «أي حظكم» الذي تنتظرون فأسرعوا فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة فعدل بها ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقباء وأقام الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وبنى في هذه الأيام مسجد قباء الذي قال الله فيه: ﴿... لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة]، وقوله من أول يوم متعلق بأسس والمعنى أسس على التقوى، وابتدأ تأسيسه من أول يوم نزل فيه النبي ﷺ قباء، وقد كان النبي ﷺ يزوره فيما بعد ويصلي فيه، وكان يأتي قباء كل سبت تارة راكبًا وتارة ماشيًا، وقال فيه: «صلاة في مسجد قباء كعمرة»[١]، وهو أول مسجد عام بني في الإسلام، وكان لأبي بكر رضي الله عنه مسجد خاص بعبادته بناه بمكة عند باب داره. ثم خرج الرسول ﷺ من قباء يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم بن عمرو بن عوف فصلى بالمسلمين الجمعة هناك في واد يقال له وادي رانوناء، فكانت أول جمعة صلاها في الإسلام لأنه لم يكن يتمكن هو وأصحابه بمكة من

---

(١) متفق عليه.

الاجتماع معلنين حتى يقيموا بها جمعة ذات خطبة وإعلان بموعظة وهذا نص الخطبة التي خطبها وهي أول خطبة للجمعة.

الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصيهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً وأوصيتكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى المسلم به المسلم، ثم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله فاحذروا ما حذركم الله في نفسه ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم وما كان من سوى ذلك، يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد، والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك فإنه تعالى يقول: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق]، فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية فإنه ﴿... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق].

وإن تقوى الله توقي مقته وتوقي سخطه وإن تقوى الله تبيض الوجوه وترضي الرب وترفع الدرجة، خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله. قد علمكم كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة ولا قوة إلا

بالله فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ذلك بـأن الله يقضي على الناس ولا يقضـون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم.

* * *

٤٦ - دخوله ﷺ المدينة

***

قال الله تعالى: ﴿... وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ... ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء] دخل رسول الله ﷺ المدينة راكبًا على راحلته يتبعه الناس فأشرقت وضاء منها كل شيء، وما فرح المؤمنون بشيء أكثر من فرحهم برسول الله ﷺ وامتلأت الشوارع بالتكبير والهتاف، الله أكبر جاء رسول الله ﷺ.

وصعدت ربات الخدور على بيوتهن يرددن هذا النشيد بنغمة شجية:

طلع البدر علينا — من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا — ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا — جئت بالأمر المطاع

ووقف اليهود والمشركون أمام هذا الاحتفال العظيم ينظرون نظرة دهشة غير حاسبين للحياة الجديدة التي ستدت في مدينتهم أذنى حساب.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء]، نزلت هذه الآية في دخول رسول الله ﷺ المدينة وخروجه من مكة. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء]، وعن قتادة[1] رضي الله عنه،

(١) انظر المزيد في: تذكرة الحفاظ ١/ ١١٥، الجرح والتعديل ق٢ ج٣، ١٣٣-١٣٥، نكت الهميان ٢٣٠، تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٥٧، وفيات الأعيان ١/ ٤٢٧، المعارف ٢٠٣، طبقات المدلسين ١٦، إرشاد الأريب ٦/ ٢٠٢.

في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء] قال أخرجه الله من مكة مخرج صدق، وأدخله المدينة مدخل صدق. قال: وعلم نبي الله ﷺ أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان وقوة له، فسأل سلطانًا نصيرًا لكتاب الله تعالى وحدوده وفرائضه وإقامة كتاب الله تعالى، فإن السلطان عزة من الله تعالى، جعلها بين عباده ولولا ذلك لغار بعضهم على بعض، وأكل شديدهم ضعيفهم. وعن زيد بن أسلم(١) رضي الله عنه في ﴿جعل الله مدخل صدق﴾: المدينة، و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ مكة، و﴿سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ الأنصار. ثم تقدم ما يناسب ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ... ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء] فالمراد أرض مكة، فبين هذه الآية أنهم أخرجوه فأدخله مولاه مدخلاً كريمًا وأخزاهم وعذبهم بسبب إخراجه كما قال: ﴿... وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء]، وذلك في يوم بدر، فقد انتقم الله منهم وعذبهم بأيدي المؤمنين ﴿... فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب]. قال تعالى: وقل يا نبي الله عند دخولك المدينة دار هجرتك ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي﴾ برحمتك ومنتك هذه البلد التي اخترتها لهجرتي (مدخل صدق) مدخلاً كريمًا طيبًا مرضيًا لا مكروه فيه، وفيه العزة والنصر والتأييد لله ولرسوله والمؤمنين (وأخرجنى) من مكة التي أحبها وولدت ونشأت وبعثت فيها (مخرج صدق) مخرجًا مرضيًا، فيه الخير للإسلام والمسلمين ﴿وَاجْعَل لِّي مِن

---

(١) انظر المزيد في: طبقات خليفة ٢٦٣، التاريخ الكبير ٣/ ٣٨٧، التاريخ الصغير ٢/ ٣٢، المعرفة والتاريخ ١/ ٦٧٥، الجرح والتعديل ٣/ ٥٥٤، مشاهير علماء الأمصار ت ٥٧٩، حلية الأولياء ٣/ ٢٢١، تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٢، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣١٦، العبر ١/ ١٨٣، طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٢٩٦، تهذيب التهذيب ٣/ ٣٩٥، خلاصة تذهيب الكمال ١٢٦، طبقات الداودي ١/ ١٧٦، شذرات الذهب ١/ ١٩٤.

﴿لَدُنكَ﴾ من عندك ومن فضلك وإحسانك ﴿سُلْطَانًا﴾ قوة وبرهان ﴿نَصِيرًا﴾ ينصرني على من ناواني وخالف أمرك، ويدلهم على الهدى والصراط المستقيم.

* * *

٤٧ - أسماء المدينة المنورة

* * *

من هذه الأسمـاء: أثرب، أرض الله، أرض الهجرة، آكـالة البلدان، آكالة القرى، الإيمان، البارة والبـررة، البحرة والبحيـرة، البلاط، البلد، بيت الرسول، تندد وتندر، الجابـرة، جبار، الجبارة، جزيرة العـرب، الجنة الحصـينة، الحبيـبة، الحرم، حـرم رسول الله، حـسنة، الخيـرة، الدار، دار الأبرار، دار الأخـيار، دار الإيمان، دار السنة، دار السـلامـة، دار الفتح، دار الهـجـرة، ذات الحجـر، ذات الحرار، ذات الـنخل، السلفة، سـيدة البلدان، الشـافيـة، طابة، طيبـة، طائب، طبـاب، العاصـمـة، العذراء، العـراء، العـروض، الغراء، غلبـة، الفـاضحـة، القاصـمة، قبة الإسـلام، قرية الأنصار، قـرية رسول الله، قلب الإيمان، المؤمنة، المباركة، مـبوأ الحلال والحرام، المجـبورة، المحبة، المحـببة، المحـبوبة، المحبورة، المحرمة، المحفـوفة، المحفوظة، المختارة، مدخل صـدق، المدينة، مدينة الرسول، المرحومة، المرزوقة، مسجد الأقصى، المسكينة، المسلمة، مضجع الرسول، المطيبة، المقدسة، المقر، المكتان، المكنية، مهاجر الرسول، المعرفية، الناجية، نبلاء، النحر، الهذراء، يثرب، يندد، يندر.

* * *

٤٨ - توسعة الحرم النبوي الشريف
في العهد العربي السعودي

***

بتاريخ ١٢ شعبان عام ١٣٦٨هـ أصدر جلالة الملك الراحل عبد العزيز آل سعود كتابًا مفتوحًا برقم ٢٧-٤-٢-١٣٧٨ أعلن فيه اعتزامه على توسعة المسجد النبوي الشريف نشرته جريدة المدينة المنورة بعددها الصادر بتاريخ ٥ رمضان عدد ٣٠١ عام ١٣٦٨هـ ومن هنا أخذ المشروع طريقه في الدرس.

وبأمر جلالته رحمه الله، تسلم صاحب المعالي الشيخ محمد بن لادن إدارة الأعمال الإنشائية للتوسعة. وعلى الفور تأسس (مكتب توسعة المسجد النبوي) وعين سعادة الشيخ محمد صالح قزاز مديرًا عامًا لجميع الأعمال الإدارية فقام بتشكيل الفروع الرئيسية وقد بلغ عدد الموظفين الذين يعملون تحت إدارته الخمسين موزعين على الأعمال الإدارية والفنية والحسابية والمستودعات وغيرها من الأقسام الضرورية. وتشكلت إلى جانب هذا المكتب لجنة رسمية من كبار رجال المدينة لتقدير المبالغ اللازمة لقيمة العقار التي تحتاجها التوسعة ودخولها على المسجد الكريم. وبتاريخ ٥ شوال عام ١٣٧٠هـ بوشر بتنفيذ مشروع عمارة الحرم النبوي الشريف بعد أن قررت اللجنة قيمة العقارات واستلم أصحابها ما يخصهم من بدل لقيمة ما أخذ منهم من دور ومحلات وسواها، وقد بلغت المساحة الإجمالية للتوسعة من محلات ومنازل وساحات وميادين ٢٢٩٥٥ مترًا مسطحًا، وبعد ذلك أخذ العمال بعمليات الهدم والخراب.

وفي الثالث عشر من شهر ربيع الأول عام ١٣٧٢هـ جرى الاحتفال بوضع

الحجر الأساسي لتوسعة الحرم النبوي الشريف حضره عشرات الآلاف من أهالي البلاد وجمع غفير من ممثلي الدول الإسلامية والعربية. وفي هذا الجو الطافح بالنور المحمدي نهض جلالة الملك سعود ووضع بيده الكريمة الحجر الأساسي.

وفي تاريخ الرابع عشر من شهر شعبان عام ١٣٧٢هـ بدأ بناء الأساسات في الجناح الغربي من مكان التوسعة والمحاذي لباب الرحمة.

وفي تاريخ ٢٤ من شهر رمضان عام ١٣٧٢هـ وضعت أول حجر في عمارة المسجد النبوي الكريم.

وبتاريخ ١٣ ربيع الأول عام ١٣٧٣هـ زار جلالة الملك سعود المدينة المنورة فبنى بيده الكريمة أربعة أحجار في جدار الزاوية الغربية للمسجد تأسيًا بالنبي ﷺ وقد ظهرت عليها لوحة من المرمر مخطوطة بماء الذهب كتب عليها اسم جلالته والتاريخ.

وبتاريخ الخامس من شهر ربيع الأول عام ١٣٧٥هـ افتتح جلالة الملك سعود باحتفال إسلامي كبير التوسعة التي تمت للمسجد النبوي الشريف وحضرها ما ينوف عن عشرين ممثلاً للدول الإسلامية والعربية تتقدمهم الهيئات الدينية وكبار الرجالات من شتى الأقطار الإسلامية والعربية البعيد منهم والقريب.

وبهذا التاريخ أعلن جلالة الملك سعود أمام الوفود الكريمة اعتزامه على توسعة الحرم المكي فور تصفية المكتب التنفيذي لمشروع توسعة المسجد النبوي ونقله إلى مكة المكرمة مع جميع الآلات والمعدات التي استخدمت في نقل مراد البناء التي وردت عن طريق ميناء ينبع البحر وميناء جدة.

* * *

٤٩ - التاريخ بالهجرة

***

كان العرب قبل الإسلام يؤرخون بحوادثهم الهامة التي كان لها أثر بعيد في حياتهم فأرخت كنانة من موت كعب بن لؤي[(١)] ثم اتخذ العرب عام الفيل بعد ذلك مبدأ عصر جديد في تاريخ حياتهم القومية، إذ لو أتيح لجيش أبرهة عامل النجاشي على بلاد اليمن الاستيلاء على مكة وعلى البيت الحرام لانصرف الناس عن مكة إلى صنعاء، لذلك كان عام الفيل فاتحة عصر جديد في تاريخ حياة العرب عامة وقريش خاصة، كذلك كانت هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة «وكانت تسمى يثرب إذاك» مظهراً رائعًا من مظاهر الجهاد والتضحية. لذلك اتخذ المسلمون من هجرة الرسول ﷺ تاريخًا يؤرخون به حوادثهم ولم يذكر عن الرسول الكريم أنه احتفل بعام الهجرة أو اتخذه مبدأ للتاريخ كما لم يرد لهذا اليوم ذكر في السنة الشريفة. ثم جاء أبو بكر رضي الله عنه فحذا حذو الرسول ﷺ في هذه السبيل، فلما ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة اتخذ الهجرة مبدأ للتاريخ العربي.

وقد قيل أن يعلى بن أمية عامل أبي بكر على بلاد اليمن كان أول من اتخذ الهجرة مبدأ للتاريخ، ولكن الراي القائل بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان أول من اتخذ من هجرة الرسول تاريخًا هو أرجح الأقوال.

روى قرة بن خالد أن عاملاً جاء في اليمن فقال لعمر رضي الله عنه: أما تؤرخون «تكتبون» في سنة كذا وكذا، فأراد عمر أن يؤرخ المسلمون حوادثهم من

(١) انظر المزيد في: الكامل في التاريخ ٢/ ٩، تاريخ الطبري ٢/ ١٨٥، المرزباني ٣٤١، السبائك ٦٢.

مبعث الرسول ﷺ ورأى بعض أن يؤرخوا بوفاة الرسول ﷺ، ورأى بعض آخر أن يكون ذلك من الهجرة(١).

وروى عن الشعبي أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إنه تأتينا كتب ليس لها تاريخ، فجمع عمر رضي الله عنه الناس وشاورهم في هذا الأمر فقال بعضهم: أرخ لمبعث رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: لمهاجر رسول الله ﷺ. فقال عمر رضي الله عنه: لا بل نؤرخ لمهاجر رسول الله ﷺ فأن مهاجرة فرق بين الحق والباطل.

وروي عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جمع الناس وسألهم عن أي يوم يكتب التاريخ. فقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك، فلقى هذا الرأي قبولاً عند عمر وعمل على تنفيذه.

كذلك روي أن عمر بن الخطاب قال للصحابة رضوان الله عليهم: ضعوا للناس شيئًا يعرفونه. فقال بعضهم: اكتبوا على تاريخ الروم، فقيل إنهم يكتبون من عهد ذي القرنين ولكن هذا أمر يطول، وقال بعضهم: اكتبوا على تاريخ الفرس، فقيل إن الفرس كلما قام ملك طرح من كان قبله، فاجتمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة فوجدوه عشر سنين فكتب التاريخ من هجرة رسول الله ﷺ.

وقال ميمون بن مهران أنه رفع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه صك محله شعبان فقال: أي شعبان هو، أشعبان الذي نحن فيه أو الآتي؟ ثم

---

(١) انظر المزيد في: أسد الغابة ٥/١٢٨، تهذيب التهذيب ١١/٣٩٩، أسماء الصحابة الرواة ٢٨١، الإصابة ت ٩٣٦٠، خلاصة تذهيب الكمال ٣٧٦، ذيل المذيل ٤٠، تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ١٦٥.

جمع وجوه الصحابة، فقال لهم: إن الأقوال قد كثرت وما قسمنا منها غير مؤقت فكيف التوسل إلى ما يضبط ذلك؟ فقالوا: يجب أن يعرف ذلك من مرسوم الفرس. فاستدعى عمر الهرمزان وسأله عن ذلك، فقال: إن لنا حساب نسميه ماه روز، معناه حساب الشهور والأيام، فعربوا الكلمة وقالوا مؤرخ ثم جعلوه اسم التاريخ واستعملوه ثم طلبوا وقتًا يجعلونه أولاً لتاريخ دولة الإسلام فاتفقوا على أن يبدأ من هجرة الرسول ﷺ. ولما كانت الهجرة قد تمت في الثاني عشر من ربيع الأول، وكان ربيع الشهر الثالث من السنة العربية اتفقوا على أن يرجعوا إلى أول المحرم من السنة التي كان فيها مهاجر رسول الله ﷺ.

* * *

٥٠ - الهجرة الدائمة

***

أخرج البخـاري عن عبد الله بن عمـرو أن النبي ﷺ قال: «المسلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه». هذا الحديث أخرجه البخاري باللفظ الذي أوردناه واقتصر فيه مسلم على «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، وزاد فـيه ابن حـبان(١) والحاكم(٢) في المستـدرك «والمؤمن من أمنَه الناس» وجاء في رواية أخرى لابن حبان «المهاجـر من هجر السيئات، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده»، وهذه الرواية الأخيرة تتناول المسلمين وغيرهـم، وقال البعض المراد بالناس هنا المسلمـون فهم الناس حقيـقة عند الإطلاق، لأن الإطلاق يحمل على الكامل ولا كمال في غير المسلمين والأجمل من هذا التخريج أن تبقى الرواية على عمومها شاملة لجمـيع الناس سواء كانوا مسلمين أو ذميين أو غيرهـم،

(١) انظر المزيد في: الإكـمال ١/ ٢١٠، الأنسـاب ٢/ ٢٠٩، معجم البلـدان ١/ ٤١٥، إنباه الرواة ٣/ ١٢٢، الكامل في التـاريخ ٨/ ٥٦٦، اللبـاب ١/ ١٥١ و٣٣٥، طبـقـات ابن الصلاح ١/ ١١٥، طبقات علماء الحديث ٣/ ١١٣، المختـصر في أخبار البشر ٢/ ١٠٥، المشتـبه ٧٢، تذكـرة الحفـاظ ٣/ ٩٤٠، سير أعـلام النبلاء ١٦/ ٩٢، مـيزان الاعـتدال ٣/ ٥٠٦، العبـر ٢/ ٣٠٠، دول الإسلام ١/ ٢٢٠، تلخيص ابـن مكتوم ٢٠٧، الوافي بالوفيات ٢/ ٣١٧، مرآة الجنان ٢/ ٣٥٧، طبقات السبكي ٣/ ١٣١.

(٢) انظر المزيد في: الإرشـاد ٣/ ٨٥١، تاريخ بغـداد ٥/ ٤٧٣، الأنسـاب ٢/ ٣٧٠، تبـيين كذب المفتري ٢٢٧، المنتظم ٧/ ٢٧٤، اللباب ١/ ١٩٨، وفيات الأعيان ٤/ ٢٨٠، تذكرة الحـفاظ ٣/ ١٠٣٩، سـيـر أعلام النبـلاء ١٧/ ١٦٢، العـبر ٣/ ٩١، مـيـزان الاعتـدال ٣/ ٦٠٨، الوافي بالوفـيـات ٣/ ٣٢٠، طبـقـات السـبكـي ٤/ ١٥٥، البـداية والنهـاية ١١/ ٣٥٥، لـسـان الميـزان ٥/ ٢٣٤، النجـوم الزاهرة ٤/ ٢٣٨، طبـقـات ابن هداية الله ١٢٣، شذرات الذهب ٣/ ١٧٦.

لأن العقول والشرائع اتفقت كلها على وجوب كف الأذى بآلاته وأنواعه عن جميع الأفراد والأجناس إلا إذا كان ذلك نتيجة لحق تقره الشرائع والأوضاع. وقد قيل في سبب هذا الحديث ومورده أنه لما انقطعت الهجرة وفضلها بعد فتح مكة حزن على فواتها من لم يدركها، واعتبروا أنهم قد فاتهم بسبب ذلك خير عظيم فاعلمهم النبي ﷺ تطييبًا لقلوبهم وإرضاء لنفوسهم أن المهاجر على الحقيقة هو من هجر السيئات وترك ما نهى الله عنه، وأن هذه الهجرة الباقية مدى الدهر.

وقد قيل إن النبي ﷺ خاطب المهاجرين بذلك لئلا يتكلوا على مجرد التجول من دارهم وعلى ما ورد في فضل الانتقال من مكة إلى المدينة، فبين لهم أن المعول عليه من كل ذلك، إنما هو مفارقة المعاصي وترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان حتى يمتثلوا أوامر الشرع ويجتنبوا نواهيه.

والحديث فيما عدا هذا قد اشتمل على أساسين عظيمين من أسس إصلاح المجتمع واستقرار الحياة فيه، فالأساس الأول ما يجب على المسلم من أخذ نفسه بمبدأ كف أذى لسانه ويده عن غيره، فهذا إن تم فإن كثيراً من شئون الناس ومعاملاتهم تستطيع أن تأخذ طريقها حثيثًا إلى حيث النظام والهدوء والاطمئنان لأن معظم ما نشاهده بين الناس من شرور وآثام، إنما يرجع في الأغلب إلى استطالة الألسنة البذيئة بالفاحش من القول والهجر من الكلام، والوقوع في الأعراض والكرامات بغير حساب، وإلى امتداد الأيدي الباغية إلى أموال الناس ودمائهم وحقوقهم بالسلب والسفك والضياع وتعرضها لحرياتهم ومصالحهم بالبطش والعدوان والإهدار، فلو أن المجتمع قد خلا من كل هذه المفاسد والموبقات التي تنشأ عما تجترحه الألسنة والأيدي لساد المعروف واستقر الوئام بين الأفراد والجماعات. والأساس الثاني ما يجب على المسلم من ترك المعاصي، وهجران السيئات واعتقاد أن الفرار بالدين من بلد إلى بلد النزوح في سبيله من دار إلى

دار، وأن ذلك مهما عظم شأنه وبلغت منزلته وضوعف ثوابه وترتب عليه من تكفير الخطايا ومحو الذنوب لا معول عليه ولا جدوى فيه إلا إذا اقترن بالهجرة الحقيقية الأصلية التي لا تحصل إلا بطاعة الله، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه. فصاحب هذه الهجرة هو الجدير بأن يسمى مهاجراً، والخليق بأن يكتب عند الله في عداد المهاجرين.

وهذا المبدأ لو ساد بين أفراد المسلمين وجماعاتهم وآمنت به قلوبهم وامتلأت به نفوسهم لكانوا أرقى الأمم وأعظمها شأنًا وأقواها سلطانًا ولكان كله أثره البالغ في رفاهية الناس وسعادة المجتمع.

* * *

٥١ - ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾

***

أحبط الله كيد المشركين في مكة ورد سهامهم التي راشوها الرسول ﷺ فاتلة إلى نحورهم وأشرقت الشمس صبيحة الليلة المعروفة على مكة، وقد سادها الهرج والمرج وعظماؤهم وصناديدهم يضربون أخماسهم في أسداسهم، طائشة أحلامهم، ذاهلة عقولهم، تكاد دماؤهم تلتهب ناراً في عروقهم من جراء ما منوا به من فشل، وما أصاب آمالهم وأمانيهم من تحطيم أتى عليها في الحظات بعد أن ظلوا يعصرون أذهانهم ويحبكون أطراف مكيدتهم أيامًا، والتجأوا إلى الغدر، واستمرؤوا الخيانة بعد إذ أعوزتهم الصراحة وخلت أيديهم من العمل في وضح النهار ولكن ﴿... وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

ماذا يفعلون وكيف يتصرفون، هل يفلت غريمهم من أيديهم بهذه السهولة وينسل من بينهم ويخترق صفوفهم وهم كالأصنام التي لم تعرف الحياة إليها طريقًا قط، ولا يكفيه هذا، بل يمعن في إذلالهم ويذهب في السخرية بهم إلى أبعد مدى فينثر التراب على رءوس من رصدوهم للفتك به وجهزوهم للقضاء عليه. كلا أنه حمل ثقيل تنوء كواهلهم بحملة ولا يرتضون لأنفسهم الوصمة بعاره فليلحقوا بغريمهم وليبذلوا أقصى ما في وسعهم ما كان يفلت من أيديهم وهو وصاحبه اثنان فقط، وهم الألوف المؤلفة، فليحضر القافة وليتأهب قصاص الأثر. وهلموا معشر قريش خلفهم لتدركوا ثأركم وتسدوا على عدوكم طريق النجاة قبل أن يذهب عنكم ثم يعود إليكم بما لا طاقة لكم به ولا قوة لكم على احتماله، وما كانت قريش بالتي تغلب من اثنين فرا من ديارهم.

تقدم القافة القوم واستنجدوا بضنهم واستعانوا بتجارتهم وأطلقوا أعينهم

تنتهب صفحة الرمال وتوازن بين فجواتها، وتقيس لاحق الآثار بسقابها وتجديده قريش خلفهم يحرقون الأرم غيظًا، وكلهم يتمنى أن يسفر مجهودهم عن نتيجة تشفى منها صدورهم ويذهب غيظ قلوبهم، ولكن أنى لهم ذلك؟ لنتركهم ينقبون في كل شق ويلجون كل مغار أو مدخل ولندعهم يسلكون طريقهم كما يحلوا لهم ولننظر أين رسول الله ﷺ الآن؟ وكيف سلك مأمنه؟ دلف رسول الله ﷺ تحت أستار الظلام ومعه صاحب الوفى وصديقه الأمين بل خير الأمة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر رضي الله عنه، وقطع الطريق على قدميه، تحمله عزيمته القوية ونفسه الأبية وتمده عناية الله تعالى ووجهًا وجهتهما غار ثور المبارك، وإذ وصلاه وهما أن يدخلاه كان لأبي بكر رضي الله عنه إذ ذاك موقف برهن فيه برهانًا جديدًا على ما يحمله بين جنبيه لرسول الله ﷺ من محبة وولاء وإخلاص، وهو موقف نترك الحديث عنه لما روى عمر رضي الله عنه حيث يقول وقد ذكر عنده أبو بكر رضي الله عنه: وددت أن عملي مثل عمل يوم واحد من أيامه وليلة واحدة من لياليه، أما ليلته فليلة أن سار مع رسول الله ﷺ إلى الغار فلما انتهيا إليه قال: والله لا تدخله حتى أدخل قبلك فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخله فكنسه، ووجد في جانبه ثقبًا فشق إزاره وسدها به وبقى منها ثقبان، فألقمهما رجليه، ثم قال لرسول الله ﷺ: ادخل فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حجره ونام فلدغ أبو بكر رضي الله عنه في رجله من الجحر فلم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ فسقطت دموعه على وجه الرسول فاستيقظ فقال: مالك يا أبا بكر؟ فقال: لدغت فداك أبي وأمي، فتفل عليه رسول الله ﷺ فذهب ما يجده رضي الله عنه، وأنه لقمين بذلك أن يكون أفضل الأمة المحمدية بعد رسول الله ﷺ استقر الرسول ﷺ وصاحبه في الغار وأسلما أمرهما لمن يعلم السر والنجوى، وارتقبا ما تتكشف عنه أقنعة الغيب ولكن كان وثوق رسول الله ﷺ بربه واطمئنانه إلى وعده بالنصر

والتأييد قد أنسياه قريشًا وكيدها وبددا من نفسه الشريفة شعور الاهتمام بأمرها والتخوف من مكرها، فإن أبا بكر رضي الله عنه كان قلق النفس موزع الشعور، تهاجمه الأفكار والوساوس لا خوفًا على نفسه ولا ضنًا بحياته.. كلا.. فإن شعوره أسمى وأعلى وأنبل من ذلك، إذ كان يخاف على حياة الرسول ويفرق من أن يناله أعداؤه بشر، وفي ذلك القضاء على الدعوة الإسلامية في مهدها. وبينما الأثر حتى وصلوا إلى الغار وهناك وقفوا مشدوهين وفوجئوا بما بلبل خواطرهم وشتت مداركهم وحير ألبابهم أين محمد وصاحبه.. أفي السماء طارا.. أم في الأرض غاصا.. إلى هنا انقطع الأثر فأين ذهبا. تلفتوا بأبصارهم الزائغة يمنة ويسرة وشرقًا وغربًا عساهم يبصرون للصاحبين أثرًا أو يتخيلون لهما شبحًا من غير جدوى ولا فائدة، ولقد تطلعوا بأبصارهم إلى كل جهة وجاسوا خلال كل مكان ما عدا الغار فلقة صرف الله عنه قلوبهم وأعمى أبصارهم وأنى لهم وكيف لعقولهم أن تتصور أن شخصين دخلا هذا الغار أو تحولا إليه إذ وجها وجهتهما نحوه، وما كان لعقولهم أن تتصور هذا أو تحوم حوله، وهذه الوقائع المادية والبراهين المحسوسة تبعده ولا تجعل للذهن طريقًا إليه، لو دخلا أما كان هذا العنكبوت «وهو النسيج الرقيق الدقيق» يتمزق ويتلاشى. لو دخلا أما كانت هذه الحمامة التي تحتضن بيضها وتحنو عليه تطير وبيضها يتهشم.. كلا فإن القول بصعودهما إلى السماء أهون من القول بدخولهما هذا الغار لا إله إلا الله ويرحم الله البوصيري إذ قال:

وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الإطم

كل هذا وأبو بكر رضي الله عنه يرجف فؤاده ويخفق قلبه خوفًا على رسول الله وهو يقول: إن قتلت فإنما أنا رجل واحد وإن قتلت أنت هلكت الأمة، ويقول: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا. عند ذلك طمأنه رسول

الله ﷺ بقوله: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما. فأنزل سكينته عليه وهدأت نفسه، وصرف الله أشباح أعدائه عن الغار بعد أن صرف أبصارهم عن رؤية من فيه، وإن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار.

***

٥٢ - مسجد الرسول ﷺ

***

أخرج ابن سعد في الطبقات عن الزهري قال: بركت ناقة رسول الله ﷺ عند موضع مسجد رسول الله ﷺ وهو يومئذ يصلي فيه رجال من المسلمين، وكان مربداً لسهل وسهيل غلامين يتيمين من الأنصار وكانا في حجر أبي أمامة أسعد بن زرارة فدعا رسول الله ﷺ بالغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير وأمر أبا بكر أن يعطيهما ذلك وكان جداراً مجدراً، وكان أسعد بن زرارة بناه فكان يصلي بأصحابه فيه ويجمع بهم الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ بالنخل الذي في الحديقة وبالغرقد الذي فيه أن يقطع، وأمر باللبن فضرب وكان في المربد قبور جاهلية فأمر بها رسول الله ﷺ فنبشت وأمر العظام أن تغيب وكان في المربد ماء مستنحل فسيروه حتى ذهب وأسسوا المسجد فجعلوا طوله مما يلي القبالة إلى مؤخره مائة ذراع وفي هذين الجانبين مثل ذلك فهو مربع ويقال كان أقل من المائة وجعلوا الأساس قريبًا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة ثم بنوه باللبن وبنى رسول الله ﷺ وأصحابه وجعل ينقل معهم بالحجارة بنفسه وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب، بابًا في مؤخره، وبابًا يقال له باب الرحمة وهو الباب الذي يدعى باب عاتكة، والباب الثالث الذي يدخل منه رسول الله ﷺ وهو الباب الذي يلي باب آل عثمان، وعمده الجذوع وسقفه جريداً، فقيل ألا نسقفه فقال: عريش كعريش موسى (أعجل من ذلك) وبنى بيوتًا إلى جنبه باللبن وسقفها بجذوع النخل والجريد فلما فرغ من البناء بنى بعائشة في البيت الذي بابه شارع إلى المسجد، وجعل سودة بنت زمعة في البيت الآخر الذي يليه إلى الباب الذي يلي آل عثمان.

هذه رواية ابن سعد في الطبقات وهي رواية يعتمد عليها كثيراً نستطيع من هذه الرواية وهي أصح ما روي عن مسجد رسول الله ﷺ أن نصور المسجد النبوي على مشرفه أفضل الصلاة والسلام بأنه كان مسجداً جامعًا كل المرافق، تام المعدات، وكانت عناصره وتفاصيله تتألف من أواوين وأساطين وبهو وروحبة ومصلى للنساء وهو ما تتألف منه المساجد الجامعة، وبهذا الوصف يمكننا تصويره بأنه كان بناء مربعًا طول ضلعه مائة ذراع في مثلها، وكان ارتفاع جدرانه سبعة أذرع ومادتها اللبن، وكان صحنه مكشوفًا وبوسطه مظلة قد رفع عليها سقف تحمله أساطين من جذوع النخل، وله ثلاثة أبواب، الأول الباب العمومي في الجهة القبلية منه وقد بقي حتى السنة الثانية من الهجرة، فلما تحولت القبلة إلى الكعبة المشرفة أوصد واستخدم غيره، الثاني باب الرحمة، والثالث باب سيدنا جبريل عليه السلام، وهو الباب النبوي الخاص بدخول الحضرة النبوية لا يدخل منه سواه، وفي النهاية القبلية للجانب الشرقي في خارج المسجد النبوي أمر النبي ﷺ ببناء دارين لزوجتيه أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين سودة، ثم أضيف فيما بعد إلى هذين الدارين سبع دور أخرى فبلغ عددها تسع. وقال آخرون: إن سعة كل حجرة في هذا الدور كان يقدر بست أذرع في سبع وهذه الدور النبوية وإن لم نكن نعلم عن وصفها شيئًا لكن شاهداً عيانًا رآها في سنة ٨٨هـ/ ٧٠٦م قبل إضافتها إلى الحرم النبوي في عهد الوليد ووصفها وصفًا ممتعًا: أخرج ابن سعد قال: أخبرنا محمد ابن عمر حدثنا عبد الله بن يزيد الهذلي قال: رأيت منازل أزواج رسول الله ﷺ حين هدمها عمر بن عبد العزيز هو أمير المدينة في خلافة الوليد بن عبد الملك وزادها في المسجد. . كانت بيوتًا باللبن ولها حجر من جريد مطرود بالطين عددت تسعة أبيات بحجرها ولم يلبث المسجد النبوي حتى زاد فيه عمر بن الخطاب في سنة ١٧هـ من الهجرة ثم زاد فيه عثمان فبالغ في تعليته ورفعه. وفي نهاية القرن الأول أرسل الوليد بن عبد الملك لعامله عمر بن عبد العزيز يأمره بتجديد المسجد

النبوي فشرع عمر في ذلك فزاد فيه من جهاته الثلاث، وأضاف إليه بيوت الرسول كما أوضحنا وزاد في مآذنه فجعلها أربعًا وكانت إحداها مطلة على دار مروان لما حج سليمان بن عبد الملك نزل بها فأطل عليه المؤذن حين الأذان فأمر بهدمها وفرش أرضه بالرخام الدقيق الملون وغشى جدرانه بالفضة ووشى سقفه بسموات منمقة بالذهب وجعل أساطينه من المرمر المجزع وأقام على الحجرة النبوية الشريفة بناء، وأقام فوق المحراب الثاني قبة ورفع أواوينه على دعامات استعمل في بنائها الحجارة المصوب عليها الحديد والرصاص وثبتها بهما، وسقف الروضة الشريفة بخشب الساج وغشاها بسموات منمقة، وأمر أن يظل الصحن بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب تكون في الصحن لتقي المصلين من الحر، وبلغ ما استخدم فيه من الذهب لتنميق سمواته ألف مثقال من الذهب، وتم العمل في هذه العمارة في سنة ٩١هـ/ ٧٠٩م وأمر أن يكتب اسمه على باب المسجد.

وفي سنة ١٦٢هـ/ ٧٧٨م جدده الخليفة العباسي المهدي فزاد فيه من الجهة الشمالية وجدد المقصورة وسواها بأرض المسجد وجعلها من الساج، ثم أعاد المأمون تجديده سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م. وفي سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م أمر الناصر لدين الله ببناء قبة في صحن المسجد لحفظ الآثار والمخلفات النبوية فأودع ما وجد منها في هذه القبة مما كانت تحتفظ به السيدة عائشة رضي الله عنها كالرداء الجوخ والإزار اللذين قبض فيهما ﷺ، وكان عندها أيضًا جبة طيالسية مكفوفة بالديباج كان ﷺ يلبسها فكانت عندها يشفى المريض بها ثم أضيف إليها محفوظات أخرى كالبردة الكعبية وسجادة وألوية ومقايض ومحفوظات للأولين من الصحابة وآل البيت مما صار بعضه إلى متحف طوب قبو بالآستانة فيما بعد.

وفي سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٢٧م أعاد المستعصم بالاشتراك مع المظفر يوسف أبي عامر ملك اليمن وعلي بن المعز آي بك ملك مصر بناء الحجرة الشريفة النبوية وما

حولها إلى حائط القبلي والشرقي وباب جبريل وقبة البهو، وأحدث له الملك المظفر منبراً بديع الصنع حمل إليـه من اليمن واستمرت العمـارة إلى أن توقفت وقتًا، ثم قام الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٩٥م بإتمام العمارة في المسجد النبوي، ثم أمر برفع منبـر المظفر لصغره وأرسل من مـصر منبراً آخر أذق صنعًـا منه وأكبر واشترك بعد ذلك في تجديد المسجد النبوي كل من الملك الناصر محمد بن قلاوون والملك الأشرف برسباي والملك الظاهر أبو سعيـد جقمق والملك الأشرف قايتباي، والمسجد النبوي على حالته الراهنة من العهد العثماني، وأول من أجرى فيه عمارة من سـلاطين آل عثـمـان السلطان سليم الثاني في سنة ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م وجـدد السلطان مـحـمـود سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م القبـة النبـوية الخـضـراء. وفي سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م أمر السلطان عـبد المجيد بتـجديده وهذه آخر عمـارات المسجد النبوي في عهد الدولة العثمانيـة، وقد كان للدولة العلوية المحمدية في هذا المسجد الكريم نصيب كـبـيـر من الإصـلاح والتـجـديد والعناية والـرعـاية فـفي سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م أمر المغفور له محمد علي باشـا بتجديد الروضة النبوية الشريفة وأمر أن يوضع فـيه شمـعدان كبـير من الذهب الخالص وشـمعدانات من الفـضة مكتوب على أحدهمـا (العبد المذنب محمـد علي والي مصر سنة ١٢٢٨هـ)، ولما اعتزم إبراهيم باشـا السفر إلى الحجـاز وذهب إلى والدته المغفور لها الأمـيرة أمينة هانم وضعت بيدها في عنقه عقداً من الجواهر الثمينة وقالت له: لا تدع هذا العقد من عنقك لا في الليل ولا في النهـار حتى تصل إلى الحـجاز وتضعـه بيدك على ضريح رسول الله ﷺ.

• ومن ذلك كله نجد أن المسلمين هم أسبق الأمم إلى وضع فن معماري خاص في بناء المساجـد الإسلامية في مصـر والشرق كما يظهـر لنا عناية الملوك والأمراء والحكام بهذا المسجد النبوي الكريم ثاني المساجـد التي تشد إليها الرحال وتوافرهم

على تجديده وعمارته وتشييده وبذلك كل غالٍ ونفيس لديهم حتى ظهر بهذا المظهر الرائع النفيس.

واليوم قد مضى على آخر عمارة للمسجد النبوي زهاء القرن فهل يفكر المسلمون في تجديد ما تقادم منه وتعميره احتذاءً بهؤلاء الملوك السابقين.

* * *

٥٣ - مشروعية الآذان

***

لما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة واجتمع إليه أصحابه المهاجرون والأنصار واستحكم أمر الإسلام أقام الصلاة جماعة، وجماعات، وفرضت الزكاة والصيام وإقامة الحدود وفرض الحلال والحرام وتبوأ الإسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحي من الأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان، فقد كان رسول الله ﷺ حين قدم المدينة يجتمع الناس إليه للصلاة حين مواقيتها بغير دعوة فأراد رسول الله ﷺ أن يجعل بوقًا كبوق اليهود لصلاتهم ثم كرهه.

ثم أمر الناقوس ليضرب به المسلمين للصلاة، فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه «أخو أبي الحارث الخزرجي» النداء. فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائف، مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسًا في يده فقلت له: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: ما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله، أشهد ألا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: إنها لرؤيا حق إن شاء الله، قم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها، فإنه أندى صوتًا منك. فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى. فقال

رسول الله ﷺ: فللّه الحمد على ذلك. هذه اروابة ابن هشام عن ابن إسحاق وقد أثبتها الحافظ ابن حجر في الفتح.

وورد في فضل الأذان والمؤذنين أحاديث كثيرة نذكر بعضها فيما يلي: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في الأذان والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً» رواه البخاري وغيره. أي لو يعلم الناس ما للمؤذن في الأذان وما للمصلين في الصف الأول من الفضيلة وعظيم المثوبة لحكموا القرعة بينهم لكثرة الراغبين بها، والتجهير: التكبير إلى صلاة الظهر، والعتمة: صلاة العشاء، وحبواً: من حبا الصبي إذا مشى على أربع.

وعن معاوية أن النبي ﷺ قال: «إن المؤذنين أطول الناس أعناقاً يوم القيامة» رواه أحمد ومسلم.

وعن البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال: «إن الله وملائكته يصلون على الصف المقدم، والمؤذن يغفر له مدى صوته ويصدقه من سمعه من رطب ويابس وله مثل أجر من صلى معه»، قال المنذري رواه أحمد والنسائي بإسناد حسن جيد.

* * *

٥٤ - أول خطبة في المدينة

* * *

لما أتم الله نعمته على الأنصار واستجمع لرسول الله ﷺ إسلام هذا الحي من الأوس والخزرج، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها إلا ما كان من بعض بطون الأوس وهم: خطمة وواقف ووائل وأمية فإنهم أقاموا على شركهم. فجمع بهم الجمعة في مسجده ﷺ. وكان رسول الله ﷺ يخطب على الأرض وعلى المنبر وعلى البعير وعلى الناقة وكان إذا خطب أحمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش، وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله وتشهد فيها بكلمة الشهادة ويذكر نفسه فيها باسمه العلم، وكان إذا قام يخطب أخذ عصاه فتوكأ عليها وأحيانًا يتوكأ على القوس. ولم يصح عنه أنه توكأ على السيف، وكان إذا عرض له عارض في خطبته اشتغل به، ثم يرجع إلى خطبته وكان أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ في مسجده بالمدينة فيما رواه ابن إسحاق عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال:

«أما بعد، فيا أيها الناس قدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ألم يأتك رسولي فبلغك؟ وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك؟.. فلينظرن يمينًا وشمالاً فلا يرى شيئًا، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته».

قال ابن إسحاق: ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال: «إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زينه الله في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبوا ما أحب الله، أحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تقسى عنه قلوبكم، زانه من كل ما يخلق الله ويختار ويصطفي، قد سماه الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد الصالح من الحديث، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا واتقوه حق تقاته وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم والله يغضب أن ينكث عهده والسلام عليكم»، هذا ما ورد في أول الخطب التي خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة.

* * *

٥٥ - تعاليم الرسول ﷺ في الجهاد ومحاربة الأعداء

* * *

إلى محمد بن عبد الله الرسول العظيم وخاتم الأنبياء والمرسلين في يوم ذكرى الميلاد أوجه أسمى عبارات التقدير والاحترام وأعظم كلمات الإكبار والإجلال، فقد ولد رسول الله ﷺ وولد معه الخير لأمته وللعالم وعاش قبل الرسالة وبعدها المثل الأعلى للصدق والأمانة والشرف والنزاهة والرجولة والشجاعة والحلم والتواضع والبر بالأهل والعطف على الفقير والمسكين، يزور المريض ويواسي المحزون ويعين المحتاج ويأخذ بيد الضعيف.

كان قبل الرسالة دائم التفكير في حالة قومه ينظر إلى أعمالهم فلا ترضى نفسه الشريفة عنها، ويتطلع إلى السماء كأنه يستمطرها الرحمة من الله والهداية لقومه وإصلاح أحوالهم، ثم تفضل الله على العالم برسالته وأذن فجر الحق أن يظهر. كان المبعوث من الله والرحمة من خالق الأرض والسماء، أرسله ربه بالهدى ودين الحق فحمل الأمانة وقام بأعباء الرسالة، وكانت حياته جهاداً دائمًا متواصلاً في سبيل إعلاء كلمة الحق، لم يثنه عن غرضه وعد أو وعيد ولا ترغيب أو ترهيب، أوذي وأوذي معه صحابته وحوصر وحُوصر قومه ثلاث سنوات شداد، فما لانت له قناة ولا انكسر منه عود، ولا ضعف له عزيمة أو فترت له همة، وعرض عليه المشركون أن يكون ملكًا أو سلطانًا عليهم أو أن يبذلوا ما شاء من مال أو جاه فقال كلمته المأثورة: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته».

كلمة قوية جامعة لا تصدر إلا من ذلك الرسول العظيم، وصرخة الحق تدوي في الآفاق وتنقلها الألسنة فتهز العروش وتخضع الجبابرة وتذل العتاة، ونفس عظيمة ترضى بالفناء في سبيل العقيدة والهلاك في سبيل الله ولا ترضى بالدنيا وما فيها، وهل كانت هذه الدعوة الفذة لدنيا يصيبها أو غرض يسعى إليه؟، ولكن خوف المشركين من أن يبدد نور التوحيد ظلمات الشرك، ومن أن يعلو الحق على الباطل فيزول سلطانهم الموهوم ويتقلص نفوذهم على الضعفاء والمساكين قد أعمى بصائرهم وأصم آذانهم فظنوا أنهم وقد عجزوا على رده بما تفننوا فيه من إيذاء النبي وصحابته قد يصلون إلى غرضهم بمثل هذه الوعود الخلابة التي تطيب لها كثير من النفوس.

لقد جاهد الرسول الكريم في سبيل الله فنشر ألوية الحق والهداية ومكن الضعفاء من حياة حرة طليقة لا سلطان فيها إلا للعقل ولا عبودية فيها لغير الله خالق الأرض والسماء، أمر الناس بأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئًا وبأن يصدقوا برسالته وبرسالة الأنبياء المرسلين قبله ووضع أسس الإخاء والمساواة بين الناس سواسية لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، فحطم أغلال الشرك وحرر العقول من قيود الوهم، وأمر بأن لا يستعين الناس بغير الله، إياك نعبد وإياك نستعين، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص]، طالبه قومه بالدليل على صدق رسالته فحكم العقل واحتكم إليه، وطالبهم بالنظر في خلق الله والتأمل والتفكير، طالبهم بالنظر في أنفسهم وفي كل ما يحيط بهم من أرض وسماء وحيوان ونبات. وأقام الدليل تلو الدليل على أن للكون خالق يدبر شئونه وينظم أموره وأنه محال أن يكون الخالق من جنس المخلوق فلا يكون إنسانًا ولا غير إنسان من حيوان ونبات أو حجر أو صنم، لأن هذه الأشياء كلها لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضراً، .فكيف تخلق

ذكرة واحدة من ذرات هذا العلم، ثم بين لهم فساد قول من قال بتعدد الآلهة: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ... ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء]، وأمر الناس بأن تكون عبادتهم خالصة لله وحده الذي يحيي ويميت ويعطي ويمنع ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام].

طالبه المشركون بالمعجزات الشاهدة على صدق رسالته فكانت معجزته القرآن كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين، اقرأه الناس جميعًا كما أنزل عليه لم يغير حرفًا ولم يبدل كلمة وتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا وفيهم فصحاء العرب وفحول البلاغة وزعماء البيان، فكان القرآن المعجزة الخالدة الباقية ما بقيت الدنيا: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

والقرآن معجز بألفاظه وكلماته وتراكيبه ومعجز بمعانيه وبما فيه من قصص وحوادث تاريخية وقعت حقًا، وتنبؤ بأحداث لم تكن وقعت إذ ذاك فأيدته في صدقه الأيام. ومعجز كذلك بما فيه من أحكام تحقق للناس الخير والسعادة، كما آمن بصلاحيتها المفكرون والعقلاء من المشرعين الأوروبيين وبنوا عليها قوانينهم ولا يزالون يعملون بها ويطبقون أحكامها على رعاياهم.

فهل آن للعالم أن يتدبر في هذه التعاليم وأن يرجع إلى هدي القرآن حتى يخلص من هذه الكروب التي ألمت به ونزلت بساحته وجعلت الحياة جحيمًا وفرقت الناس شيعًا وأحزابًا كل حزب يمعن في الكيد لغيره.

هل آن للعالم الذي طغت عليه المادة أن يرجع إلى هدي القرآن حتى يسود السلام والوئام بين الأمم، وتملأ السكينة والطمأنينة قلوب الناس المروعة؟

هل آن للمسلمين أن يعرفوا دينهم وربهم وينصروا الله بنصرة دينه وأحكامه؟

هل آن للحق أن يسطع نوره مرة أخرى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص].

* * *

٥٦ - رسل رسول الله ﷺ
إلى الملوك بعد صلح الحديبية

***

بعد تلك الهدنة التي تمت بصلح الحديبية أمن المسلمون شر قريش وأصبحت طرق المواصلة مع سائر الجهات متيسرة، فشرع رسول الله ﷺ في نشر الدعوة وتعميمها فكاتب ملوك الأرض يدعوهم وأممهم إلى الإسلام، واتخذ له خاتمًا نقشه «محمد رسول الله» فبعث دحية الكلبي بكتاب إلى قيصر وملك الروم، وكان بالقدس فلما وصله الكتاب وكان أبو سفيان بالشام في تجارة استدعاه فسأله عن نسب رسول الله ﷺ، فقال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب. فسأله: هل تكلم بهذا القول أحد قبله؟ فقال: لا. فسأله: هل كنتم تتهمونه بالكذب؟ فقال: لا. فسأله: هل كان من إبائه ملك؟ فقال: لا. فسأله: هل أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم. فسأله: هل يزيدون أم ينقصون؟ فقال: بل يزيدون. فسأله: فهل يرتد أحد منهم كراهية في دينه؟ فقال: لا. فقال له: هل يغدر إذا عاهد؟ فقال: لا. فسأله: هل قاتلتموه وكيف حربكم وحربه؟ فقال: حاربناه وكانت الحرب بيننا وبينه سجالاً مرة لنا ومرة علينا. فسأله: بم يأمركم؟ فقال: يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وينهى عما كان يعبد آباؤنا ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. فاستنتج الملك مما ذكر أنه نبي وقال لأبي سفيان: إن كان ما كلمتني به حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين، ثم جمععظماء الروم وحادثهم في اتباع هذا النبي فنفروا وقد غلب عليه حب ملكه فلم يسلم ورد دحية ردًا جميلاً.

وأرسل عليه الصلاة والسلام الحارث بن عمير بكتاب إلى أمير بصرى فلما

بلغ «مؤتة» من قرى الشام تعرض له شرحبيل الغساني فقتله، ولم يقتل الرسول ﷺ رسول غيره، وأرسل عليه الصلاة والسلام كتابًا إلى أمير المؤمنين التابع لملك الروم فلما وصله الكتاب وقرأه رمى به واستعد لحرب المسلمين واستأذن ملكه في ذلك فلم يأذن له.

وأرسل عليه الصلام والسلام حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى المقوقس أمير مصر من قبل ملك الروم، وكان بالإسكندرية فلما قرأه قال لحاطب: ما منعه إن كان نبيًا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟ فقال له حاطب: ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله فلم لم يمنعه الله حين أخذه قومه ليقتلوه؟ فقال المقوقس لحاطب: أحسنت، ولقد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضار ولا بالكاهن الكذاب وسأنظر. ثم كتب رد الجواب لرسول الله ﷺ بكلام لا اعتراف فيه ولا إنكار، وأهدى له جاريتين أحديهما مارية التي تسرى عليه الصلاة والسلام بها وأتى منها بولده إبراهيم عليه السلام.

وأرسل عليه الصلاة والسلام كتابًا إلى النجاشي ملك الحبشة فلما قرأه قال للرسول: إني أعلم والله إن عيسى بَشَّرَ به، ولكن أعواني بالحبشة قليل.

وأرسل إلى كسرى ملك الفرس فاستكبر ومزق الكتاب فمزق الله تعالى ملكه كل ممزق.

وأرسل إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين فأسلم وأسلم معه قومه وأقره النبي ﷺ أميرًا من قبله على جهة البحرين.

وأرسل إلى جعفر وعبد الله ابني الجلندى ملكي عمان فأسلما بعد أن سألا عما يأمر به النبي ﷺ وينهى عنه. فقال لهما: إن رسول الله ﷺ يأمر بطاعة الله

عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان، والزنا وشرب الخمر وعن عبادة الحجر الوثن والصليب.

وأرسل عليه الصلاة والسلام إلى هوذة بن علي ملك اليمامة فطلب من رسول الله ﷺ أن يجعل له بعض الأمر فلم يجبه.

* * *

٥٧ - نفسية الرسول قبل الهجرة

***

كانت نفسية الرسول صلوات الله عليه قبل الهجرة نفسية رجل تفتحت أمامه الآمال بعد اليأس، وامتلأ قلبه ثقة بعد أن كاد يقتله الأسف.

ففي السنة العاشرة من البعثة قد بلغ منه الحزن ﷺ مبلغًا عظيمًا، وقد سمى الرسول ﷺ ذلك العام عام الحزن، حيث أصيب فيه بوفاة عمه وحاميه أبي طالب، ثم ماتت زوجته السيدة خديجة بعد أبي طالب، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنين فقد الرسول بذلك نصيرين كبيرين وأصبح بقاؤه بمكة محفوفًا بالمخاطر. يقول أبو الفدا: وتتابعت على رسول الله ﷺ بموتهما المصائب ونالت منه قريش ولا سيما أبو لهب والحكم بن العاصي وعقبة بن أبي معيط فإنهم كانوا جيران النبي ﷺ وكانوا يؤذونه بما يلقون عليه وقت صلاته وفي طعامه من القاذورات.

ولما اشتد أذى قريش لرسول الله ﷺ أخذ يفكر فيما كان قد أشار به أصحابه منذ سنين، عندما اشتد تحامل قريش عليهم وهي الهجرة، فلقد دلته تجارب سنوات عشر على أن دعوته توشك أن تذهب صرخة في واد، وأذن فقيم المقام بواد غير ذي زرع حقيقة ومجازًا؟ فليهاجر؟ ولكن على ألا يتخطى حدود بلاد العرب فهو مبعوث إلى العرب أولاً وإلى سائر الناس أخيرًا، فليتحرج إلى أقرب قرية عربية من مكة إلى الطائف فسافر إليها يلتمس من ثقيف النصرة فدعاها إلى الإسلام كما هي عادته لم يساوم ولم يتنازل، وقد كان في مقدوره أن يركن إلى الراحة، وأن يستريح من أفكاره عن الإسلام فيسترد ما فقدته صحته، ولكنه لم يفكر في مثل هذه الأفكار، فقد اختار الطريق الوعر، وراح يعظ قومه ويسفه

دينهم فلم يلق منهم أذنًا صاغية، بل قابلوا دعوته بالاستهزاء وأغروا به سفهاءهم فاصطفوا على جانبي الطريق في مسافة طويلة يرشقونه بالحجارة في عقبيه فسال منه الدم وكان كلما اشتد نزيف الدم منه وأعياه التعب جلس يستريح وليستجمع قواه، ولكنهم ما كانوا ليتركوه بل كانوا يأمرونه بالرحيل، واستمر الحال على هذا قرابة ثلاثة أميال. فلما اطمأن الرسول ﷺ اتجه إلى الله العظيم لا ليعلن بؤسه وقنوطه فما له أن يقنط وهو المطمئن على المستقبل، بل ليستمد من الله العون فراح يتضرع ويدعو:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وأسألك الرحمة على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي».

أي إنسان لا يقدر صفاء هذه النفس التي تنبض بمثل هذا السمو في مثل هذه الظروف الصعبة القاسية؟ أمن الممكن أن يفيض قلب وجل بمثل هذه الأحاسيس النبيلة في مزدحم الآلام في شدة الكروب ياللثقة الراسخة في الله ويالّلخضوع العجيب لإرادة الله. وياللسعادة الروحية الصافية التي لا يشوبها إن كل أذى ليهون في جانب الله.

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة وقد يئس من نصرة ثقيف، فأراد الله أن يبدل يأسه أملاً وحزنه ثقة وأن يمده بروح من عنده لتفتح له أبواب اليسر ويبدو له بريق الانتصار، فلما كان «بنخلة» واد على ليلة من مكة قام من جوف الليل يصلي فأرسل إليه تعالى نفرًا من الجن يستمعون القرآن، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا فقص الله خبرهم على رسوله فقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ

الْقُرْآنَ... ﴿٢٩﴾ إلى قــوله تعــالى: ﴿... وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف]، وإذا ألقينا نظرة على هذه الآيات وأخذنا نتفهمها بالحسن اللغوي رأينا في التعبد بقوله: ﴿صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ القصد المتوجه إلى الرسول ﷺ بهذا الصرف في مثل هذه الحـالة لتطيب خاطره وتسلية نفســه المجاهدة المكافحة لتـزداد اطمئنانًا في كفاحها وعزمًا في جهادها.

يقول ارفنج في كتابه «حياة محمد» إن هذه الزورة من الجن فيها عزاء وتسلية لمحمد بعد رجـوعه من الطائف تلك الرجعة المؤلمة إذ فيـها إشارة إلى أنه إذا كانت دعوتـك وتعاليـمك قد نبـذت ورفضت من مـعشر الإنـس فقد قـوبلت باحـترام وإعجاب من عالم الجن، عالم الذكاء الغيبي غير المرئي.

* * *

٥٨ - قريش وحادث الإسراء

***

جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: لما كذبتني قريش كنت في الحجر فجلى لي الله بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه. فمنذ جهر النبي ﷺ بدعوته إلى الإسلام وقريش واقفة له بالمرصاد تناوئه وتناكره وتغالبه وتكذبه وتنابذه وتفتري عليه، ولقد اتخذ هذا الموقف صوراً مختلفة وتنقل في أدوار متعددة من الأفعال والأحوال. وهكذا ظلوا في غيهم وجهلهم وعنتهم وجحودهم حتى وقع حادث الإسراء فظنوه فرصة مواتية لتشنيعهم وحسبوه وسيلة ناجحة لتشهيرهم وراحوا يتحدونه ويتجنون عليه ويكذبونه ويسخرون منه ويواجهونه باللوم والتعنيف، ولقد كان في مقدمة الذين أخبرهم ﷺ بمسراه أم هانئ بنت أبي طالب فقالت له: لا تحدث الناس بهذا الحديث فيكذبوك ويؤذوك. فقال: «والله لأحدثنهم به»، وما كاد يغدو إلى المسجد في صبيحة ليلة الإسراء ليخبر الناس الخبر حتى مر به أبو جهل فقال له: هل كان من شيء؟ فقال له: إني أُسري بي الليلة إلى بيت المقدس. فقال أبو جهل: قد أصبحت بين أظهرنا. فقال: نعم. فقال: إن دعوت قومك أتحدثهم بهذا؟ قال: نعم. فقال: يا معشر بني كعب بن لؤي فانفضت إليه المجالس حتى حضروا عنده. فقال: حدث قومك بما حدثتني. فحدثهم فكانوا بين مصفق وبين واضع يده على رأسه تعجبًا وإنكاراً، وارتد بعض من آمن به ﷺ وافتتن الناس، فقال أكثرهم إن هذا والله الأمر المبين، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة فيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة. وسعى رجال إلى أبي بكر فقالوا له: هل يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس، وحل فيه ورجع

مكة؟ فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه. فقالوا: بله ها هو ذا في المسجد يحدث به الناس. فقال أبو بكر: والله لئن قاله لقد صدق فما يعجبكم من ذلك، فوالله إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه. فهذا أبعد مما تعجبون منه، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هل حدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس في هذه الليلة؟ قال: نعم. قال: فصفه لي فإني قد جئته. فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، وأبو بكر يقول: صدقت، أشهد أنك رسول الله، فما وصف شيئًا إلا قال له: صدقت، أشهد أنك رسول الله، فمن يومئذ سمي الصديق. وكان في القوم غير أبي بكر ممن يعرف بيت المقدس فطلبوا من النبي ﷺ بعد التكذيب والإنكار أن ينعته لهم فجلاه الله له وأظهره عليه فأخذ ينظر إليه وينعته ويخبرهم عن أماراته وعلاماته وما سألوه عن شيء إلا نبأهم حتى لقد سألوه عن عدد أبوابه فجعل يعدها لهم بابًا بابًا ولمبالغتهم في الإحراج وتلمس الهزيمة والعجز قالوا له: ما النعت فقد أصبت فيه، ولكن أخبرنا عن عيرنا فهي أهم إلينا، فهل لقيت منها شيئًا؟ قال: نعم، مررت بعير بني فلان وهي بالروحاء فقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه، وفي رحالهم قدح من ماء فأخذته وشربته ووضعته كما كان ما سألوهم هل وجدوا الماء في القدح عندما رجعوا قالوا هذه آية، قال: إن العير ستقدم يوم كذا مع طلوع الشمس، وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان محيطتان. قالوا: وهذه آية أخرى، ثم خرجوا ينشدون ذلك اليوم نحو الثنية وجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس ليكذبوه، وبينما هم على هذه الحال إذ قال قائل هذه الشمس قد طلعت، وقال آخر: وهذه العير قد أقبلت يقدمها بعير أورق فيها فلان وفلان كما قال محمد. ومع كل هذه الدلائل الواضحة والأوصاف الظاهرة والأخبار الصحيحة لم يؤمنوا به، ولم يصدقوه، وقالوا: هذا سحر مبين

وتخبير الشياطين، واستمروا في ضلالهم يعمهون وفي بهتانهم يتخبطون وفي عنادهم يسيرون، إلى أن كانت الهجرة من مكة إلى المدينة والغزوات الصغرى والكبرى، وتم فتح مكة فدخلوا في دين الله أفواجًا وأسلموا وحسن إسلامهم وكانوا الطليعة والقادة الذين نشروا الإسلام وأشاعوا مجده وفضله وأسسوا على ضوء تعاليمه ومبادئه أمة قوية الجانب عزيزة السلطان.

* * *

٥٩ - النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل

***

لما رأى الرسول ﷺ أن قريشًا لم تمكنه من تأدية الرسالة كان يخرج في مواسم العرب ويعرض نفسه على القبائل فكان منهم من يرد ردًا حسنًا ومنهم من يرد ردًا قبيحًا وكان من أقبحهم ردًا بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب.

وممن عرض نفسه عليهم نفر من «يثرب» من الأوس فلما كلمهم النبي ﷺ عرفوا وصفه الذي كانت تصفه به اليهود، فقالوا فيما بينهم: «والله إنه النبي الذي تواعدنا به اليهود فلا تسبقنا إليه» فآمن منهم ستة كانوا سبب انتشار الإسلام في المدينة منهم سعد بن زرارة، ثم انصرفوا بعد أن وعدوه بالمقابلة في الموسم المقبل، فلما كان العام القادم لقيه اثنا عشر رجلاً منهم عشرة من الأوس واثنان من الخزرج وفيهم خمسة من الستة الأولين فآمنوا عند العقبة وبايعوه على ما أحب وهي البيعة الأولى. وكانت المبايعة على ما يأتي وهي: «ألا نشرك بالله شيئًا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصي في معروف، وأن نقول الحق حيث كنا لا نخاف في الله لومة لائم»، فقال لهم عليه الصلاة والسلام «فإن وفيتم فلكم الجنة»[١]، ثم انصرفوا إلى المدينة فأظهر الله فيها الإسلام ولم تبق دار من دور المدينة إلا وذكر فيها الرسول.

***

---

(١) ورد في سيرة ابن هشام.

٦٠ - فتح مكة المشرفة

***

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ ... ۝٢﴾ [الفتح]. زادها الله شرفًا وكرمًا وهو الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحرمه الأمين. واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين. خرج له ﷺ بكتائب الإسلام، وجنود الرحمن لنقض قريش العهد الذي وقع بالحديبية وقدم أبو سفيان بن حرب على رسول الله ﷺ يسأله أن يجدد العهد ويزيد في المدة فأبى عليه فانصرف إلى مكة، فتجهز رسول الله ﷺ من غير إعلام أحد، فكتب حاطب كتابًا وأرسله إلى مكة يخبرهم بذلك فأطلع الله نبيه على ذلك فقال عليه الصلاة والسلام لعلي والزبير والمقداد انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها. قال: فانطلقنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة قلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب. قلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب. قال: فأخرجته من عقاصها فأتينا به للنبي ﷺ فإذا به من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم بأمور النبي ﷺ فقال: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل علي إني كنت امرءًا ملصقًا في قريش «أي حليفًا»، ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي ولم أفعل ذلك ارتدادًا عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم. فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. قال: إنه قد شهد بدرًا، ما يدريك لعل الله أطلع على من شهد بدرًا. فقال: اعملوا ما شئتم

قد غفرت لكم، فقد أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ... ﴿١﴾ ﴾ [الممتحنة] إلى قوله ﴿ ... فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [البقرة] رواه البخاري.

وحكى السهيلي أن لفظ الكتاب الذي كتبه حاطب: «أما بعد، يا معشر قريش فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش عظيم يسيل كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وانجز له، فانظروا لأنفسكم والسلام»، وبعث رسول الله ﷺ إلى من حوله من العرب أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، واستخلف ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم وخرج يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شهر رمضان، وقيل لعشر وقيل لأكثر بعد العصر سنة ثمان من الهجرة، وكان المسلمون عشرة الاف وقيل اثنى عشر ألفًا، وكان العباس قد خرج بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا فلقى رسول الله ﷺ بالجحفة وكان قبل ذلك مقيمًا بمكة على سقايته ورسول الله ﷺ عنه راضٍ، وكان ممن لقيه في الطريق أبو سفيان بن الحارث ابن عمه عليه الصلاة والسلام، وأخوه من رضاع حليمة السعدية، ومعه ولده جعفر، وكان أبو سفيان يألف رسول الله ﷺ، فلما بعث عاداه وهجاه وكان لقاؤهما له عليه الصلاة والسلام بالأبواء وأسلما قبل دخوله مكة، ثم سار ﷺ فلما كان بقديد عقد الألوية والرايات ودفعها إلى القبائل ثم نزل من الظهران عشاء فأمر رجاله فأوقدوا عشرة آلاف نار ولم يبلغ قريشًا مسيره وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم فبعثوا أبا سفيان بن حرب وقالوا: إن لقيت محمدًا فخذ لنا منه أمانًا. فخرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء حتى أتوا من الظهران فلما رأوا العسكر أفزعهم فرآهم الناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ فأسلم أبو سفيان. فلما سار قال للعباس: احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى

المسلمين فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر مع النبي ﷺ كتيبة كتيبة على أبي سفيان فمرت كتيبة فقال: يا عباس من هذه؟ قال: هذه غفار. قال: مالي ولغفار. ثم أقبلت جهينة. فقال مثلك ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها. فقال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية. فقال سعد: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة، وفي رواية تستحل الحرمة، فسمعها رجل من المهاجرين. فقال يا رسول الله ما إمن أن يكون لسعد في قريش صولة، فقال لعلي رضي الله عنه: أدركه فخذ الراية منه فكن أنت أول من يدخلها. وروي أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ لما حاذاه أمرت بقتل قومك؟ قال: لا. فذكر له ما قال سعد بن عبادة، ثم ناشده الله والرحم، فقال: يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشًا. وأرسل إلى سعد فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه قيس، قال موسى بن عقبة بعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل كداء بأعلى مكة، وأمره أن يعزز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يعزز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة، وقد تجمع بها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناف، وناس من هذيل ومن الأحابيش الذي انتصرت بهم قريش فقاتلوا خالدًا فقاتلهم فانهزموا وقتل من بني بكر نحو من عشرين رجلاً، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة حتى انتهى بهم القتل إلى الحزورة إلى باب المسجد حتى دخلوا الدور فارتفعت طائفة منهم إلى الجبل وصاح أبو سفيان: من أغلق بابه وكف يده فهو آمن، ونظر رسول الله ﷺ إلى البارقة فقال: ما هذه فقد نهيت عن القتال. فقالوا: إن خالدًا قوتل وبدئ القتال فلم يكن له بد من أن

يقاتلهم، وقـال رسول الله ﷺ بعـد أن اطمأن لخالد: لم قـاتلت وقد نهـيتك عن القتال؟ فـقال: هم بدءونا بالقتال، وقد كـففت يدي ما استطعت فقـال قضاء الله خير. وقال العباس بعد أن أسلم أبو سـفيان وشهد شهادة الحق يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الـفخر فاجعل له شيئًـا. قال: نعم وأمر ﷺ فنادى مناديه «من دخل المسجد فـهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فـهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن»(١)، إلا المستثنين وهم على مـا جعله الواقدي عن شيوخـه عشرة أنفس ستة رجـال وأربع نسوة. وروي أنه ﷺ وضع رأسه تواضعًا لله لما رأى مـا أكرمه الله تعالى به من الفتح حتى أن رأ؟سه لتكاد تمس رحله شكرًا وخضوعًا لعظمته تعالى أن أحل له بلدًا لم يحله لأحد قبله ولا لأحد بعده.

وفي تفسـير العلامـة ابن النقيب المقدسي أن الله تعـالى لما أعلم رسوله ﷺ بأنه قد أنجز له وعـده بالنصر على أعدائه، وفتح مكة وإعـلاء كلمة دينه أمره حين دخل مكة أن يقـول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء]، فصار ﷺ يطعن الأصنام التي حول الكعبة بمحجنه ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ فيخـر الصنم ساقطًا مع أنها كلها مـثبتة بالحـديد والرصاص وكانت ثلاثمائة وستين صنمًا بعدد أيام السنة.

* * *

---

(١) متفق عليه.

٦١ - غزوات النبي ﷺ

أسباب الغزوات ومشروعية القتال

* * *

بعد أن استقر رسول الله ﷺ بالمدينة كان بها اليهود من بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير أقرهم عليه الصلاة والسلام على دينهم وأموالهم واشترط لهم وعليهم شروطًا، وكانوا مع ذلك يظهرون العداوة والبغضا للمسلمين ويساعدهم جماعة من عرب المدينة كانوا يظهرون الإسلام وهم في الباطن كفار وكانوا يعرفون بالمنافقين يرأسهم عبد الله بن أبي سلول، وقد قبل ﷺ من هاتين الفئتين اليهود والمنافقين، عاهدهم فلم يحاربهم ولم يحاربوه بل كان يقاوم الإنكار بالحجج الدامغة والحكم البالغة، ولم يكن يقاتل أحدًا على الدخول في دين الله، بل كان يدعوهم إليه ويجاهد في سبيله بإقامة ساطع الحجج وقاطع البراهين، ولكن لما كانت قريش أمة معادية له مقاومة لدعوته معارضة له فيها، وقد آذته وآذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم واستولت على ما تركوه بمكة من الأموال، وآذت المستضعفين الذين لم يقدروا على الهجرة، آذن الله تعالى لرسوله ﷺ من ذلك مصادرة تجارة قريش التي كانوا يذهبون بها إلى الشام ويجلبونها منه.

وكان بعد ذلك عندما تدعو الحال القتال من يقف في وجه الدعوة من قريش أو غيرهم، يخرج إلى القتال بنفسه ومعه المقاتلون من المسلمين وتارة يبعث مع المقاتلين من يختاره لقيادتهم، وقد سمى المؤرخون ما خرج فيه النبي ﷺ بنفسه «غزوة» سواء أحارب فيها أم لم يحارب، وسموا ما بعث فيه أحد القواد «سرية».

ففي السنة الأولى من هجرته: بعث سريتين.

وفي السنة الثانية: غزا بنفسه سبع غزوات وبعث سرية واحدة وأكبر غزواتها غزوة بدر، وكانت في العشرة الأواخر من شهر رمضان.

وفي السنة الثالث: غزا بنفسه أربع غزوات وبعث سرية واحدة، وأهم غزواتها غزوة أحد.

وفي السنة الرابعة: غزا ثلاث غزوات وبعث ثلاث سرايا.

وفي السنة الخامسة: غزا أربع غزوات أشهرها غزوة الخندق، وتسمى أيضًا بغزوة الأحزاب، ويقال إنها كانت في السنة الرابعة.

وفي السنة السادسة: غزا ثلاث غزوات وبعث إحدى عشر سرية ومن غزواتها غزوة الحديبية.

وفي السنة السابعة: غزا غزوة واحدة وهي غزوة خيبر وبعث ثلاث سرايا.

وفي السنة الثامنة: غزا أربع غزوات وبعث عشر سرايا، وأكبر غزواتها غزوة فتح مكة المكرمة وغزوة حنين.

وفي السنة التاسعة: غزوة واحدة وهي غزوة تبوك، وبعث سرية واحدة.

وفي السنة العاشرة: بعث سريتين وفيها حج حجة الوداع.

وفي السنة الحادية عشرة: بعث سرية واحدة.

فجملة الغزوات التي خرج للقتال فيها بنفسه ﷺ سبع وعشرون غزوة، وجملة السرايا التي بعث فيها القواد ولم يخرج فيها بنفسه خمس وثلاثون سرية، وقد اكتفينا بذكر أشهر الغزوات بأسمائها وتاريخها اختصاراً.

* * *

٦٣ - غزوة حنين

* * *

بفتح مكة دانت للإسلام جميع العرب ودخلوا في دين الله أفواجًا، غير أن قبيلتي هوازن وثقيف، أخذتهما العزة والأنفة، وتجمعتا لحرب المسلمين في مكة، فلما سمع رسول الله ﷺ بالأمر خرج في اثني عشر ألف مقاتل، وهو أكثر جند جنده عليه الصلاة والسلام، فلما وصل جيش المسلمين إلى وادي حنين كان العدو كامنًا في شعابه، فقاموا على المسلمين قومة رجل واحد، قبل أن يتمكن المسلمون من تهيئة صفوفهم فانهزمت مقدمة جيش المسلمين، فأمر رسول الله ﷺ عمه العباس أن ينادي في الجيش بالثبات فاجتمعوا واقتتل الفريقان، ولم تمض ساعات حتى انهزم الأعداء هزيمة شديدة، وقد قتل من ثقيف وهوازن نحو سبعين، وغنم المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وإبل. ثم توجه رسول الله ﷺ إلى ثقيف بالطائف، فحاصرها مدة ولم يفتحها وبعد رجوعه منها أتاه وهو بالجعرانة وفود من هوازن يلتمسون منه رد نسائهم وأبنائهم الذين سباهم المسلمون فقال عليه الصلاة والسلام، ما كان لي ولبني عبد المطلب فقد رددته إليكم، فقال المهاجرون والأنصار ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فردت إلى هوازن نساؤهم وأبناؤهم.

ثم قام عليه الصلاة والسلام من الجعرانة إلى مكة معتمرًا، فأدى العمرة وعاد بعد ذلك إلى المدينة فوصلها لست بقين من ذي القعدة.

* * *

٦٣ - غزوة تبوك

* * *

أقام عليه الصلاة والسلام بالمدينة إلى منتصف الصنة التاسعة للهجرة، ثم بلغه أن الروم يتجهزون في تبوك لحربه بعدما كان بينهم وبين المسلمين في حادثة «مؤتة» فتجهز عليه الصلاة والسلام لغزوهم في ثلاثين ألف مقاتل، وكان المسلمون إذ ذاك في زمن عسر وجدب، فلم يعفهم ذلك عن التأهب لقتال الأعداء، وتصدق أبو بكر رضي الله عنه لذلك بجميع ماله وعثمان بن عفان رضي الله عنه بمال كثير، فخرج عليه الصلاة والسلام حتى وصل تبوك فلم يجدهم بها، وأقام هناك بضع عشرة ليلة ثم قفل إلى المدينة، وهذه آخر غزواته ﷺ.

* * *

٦٤ - غزوة خيبر في أول السنة السابعة للهجرة - فتح فدك

* * *

وبعد فتح خيبر أرسل ﷺ إلى يهود فدك فصالحوه على أن يتركوا له أموالهم ويحقن دماءهم فأجابهم لذلك.

* * *

٦٥ - رجوع بقية مهاجري الحبشة إلى المدينة

* * *

بعد رجوع المسلمين من خيبر قدم من الحبشة بقية من كان فيها من المهاجرين منهم: جعفر بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري، وقـومه بدع أن أقاموا بها عشر سنين وقد أسلم بـعد غزوة خـيبر ثلاثة من عظمـاء الرجال هم خـالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعمار بن صليحة العبودي.

* * *

٦٦ - عمرة القضاء

* * *

لما حال الحـول على صلح الحديبـية خـرج رسول الله ﷺ بأصحـابه الذين صدوا معـه عن البيت عام الحديبية ليـقضوا تلك العمرة التي صـدوا عنها في عام الحديبية، فلمـا وصلوا مكة خرجت منها قريش ودخلها المسلمون وقـضوا عمرتهم وأقاموا بمكة ثلاثة أيام ثم انصرفوا إلى المدينة بسلام.

* * *

٦٧ - سرية مؤتة

* * *

في منتصف السنة الثامنة الهجرية بعث رسول الله ﷺ جيشًا مؤلفًا من ثلاثة آلاف مقاتل للاقتصاص من عمر بن شراحبيل أمير بصرى من قبل الروم، لقتله الحارث بن عمير الذي بعثه إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام، فلما بلغ هذا الجيش أرض «مؤتة» قابلهم الروم والعرب المتنصرة في مائة وخمسين ألفًا وكان قائد المسلمين زيد بن حارثة فقتل، فتولى القيادة جعفر بن أبي طالب فقتل، ثم تولى بعده عبد الله بن رواحة فقتل، وكان هذا الترتيب بأمر رسول الله ﷺ. وبعد أن استشهد من سماهم النبي ﷺ اتفق الجيش على تولية خالد بن الوليد، فجعل يخادع الأعداء حتى ألقى الله الرعب في قلوبهم وانصرفوا.

* * *

٦٨ - طرف من أخلاق الرسول وشمائله للتحية والقدوة

* * *

تتحرك مشاعر المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها وتنهض قلوبهم بذكر الله ورسوله، إجلالاً وتعظيمًا لذكرى ميلاد الرسول صلوات الله وسلامه عليه «محمد بن عبد الله» الذي اختاره الله تعالى، واصطفاه من خلقه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

وتتنافس الجماعات والهيئات والشعوب والحكومات في الممالك الإسلامية في الحفاوة بذكرى سيد الرسل وخاتم الأنبياء رمزًا لما تكنه قلوبهم من تقدير وإعظام، واعترافًا بما كان لهذا النبي الكريم من الإنسانية وبما أضفته حياته على الكون من هداية ونفع للبشرية مما لا يستطيع بيانه فرد واحد، ولا جماعة واحدة، ولا هيئة واحدة.

وحسبي في تحية هذه الذكرى الجليلة أن أبي طرفًا من فضائله عليه السلام وجانبًا من صحائف علاه ومحاسن صفاته التي امتاز بها واصطفاه الله من أجلها.

هذا النبي الأمي الذي ملأ طباق الأرض علمًا وعرفانًا وهداية ونورًا وتوحيدًا وإيمانًا وإصلاحًا وعدلاً وإخاءً ومساواة وحرية وسلامًا وأمنًا.

هذا اليتيم الذي كلاه الله برعايته وأعده لتبليغ رسالته وأدبه فأحسن تأديبه حتى صار مثلاً أعلى في كل صفات الإنسانيه، وبعثه ليتمم مكارم الأخلاق، وأثنى عليه سبحانه في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

وإلى هذا الكمال النفسي وتأييد الله يرجع نجاح الدعوة الإسلامية التي حمل رسالتها فأداها أحسن أداء وقام بتبليغها أكمل تبليغ حتى قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ... ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة].

وكان ﷺ قبل بعثته إلى جانب عظيم من الأمانة والوفاء والصدق والبعد عن شرور الجاهلية ومفاسدها عصمه الله من باطل عقائدهم وسيئات عاداتهم وأعمالهم، وطهر قلبه من كل دنس، وصدره من كل حقد، وجمله بأجمل الأخلاق، حتى كانوا في الجاهلية يدعونه بالأمين، ويثقون به لما عهدوه من صدقه وطهارة خلقه ورجاحة عقله وبعد نظره. ولما اختلفت قريش عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه من البيت وتنافسوا في ذلك وتنازعوا، وكاد الأمر يقضي بينهم إلى الحرب، هرعوا إلى الأمين لثقتهم به، فهداه الله إلى الحل الذي كان فيه فصل الخطاب واجتماع الشمل، فسكنت الفتنة واطمأنت النفوس وارتضته قريش كلها وتم بناء الكعبة بحكمة محمد وحسن تدبيره وأصالة رأيه، وعدالة حكمه.

وكان النبي صلوات الله عليه أوفر نصيب من الرحمة والعطف على الضعفاء والبر بالفقراء، فلما أخبر خديجة بنزول الوحي في أول مرة قالت له: «ما كان الله ليخزيك أبدًا، إنك لتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الدهر».

وكان عليه السلام مثال التواضع ولين الجانب ورقة القلب، فكان يقول: «اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين». وهذه أخلاق الأنبياء والمصلحين وقادة البشرية إلى المثل العليا. ما عاش محمد صلوات الله عليه لنفسه، بل عاش لله وجاهد في سبيل الحق ولدعوة الناس إلى الخير والتعاون في

البر والإحسان ابتغاء مرضاة الله. وكان يقول إذا نالت منه الحوادث ولقى الأذى من المشركين: «اللهم إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي».

ولم يرغب عليه السلام في مال ولا في دنيا لا لنفسه ولا لأهل بيته، ولم يورثهم مالاً، وكان يقول: «نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»، كما كان يقول لأهل بيته وقرابته: «يا بني هاشم لا يجيئني الناس بالأعمال وتجيئوني بالأنساب اعملوا»، ويقول لفاطمة: «لن أغني عنك من الله شيئًا»، وكان ﷺ مثلاً أعلى في الحلم والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره، وهي صفات جمله الله بها فقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿... وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان].

وكان الحلم عنده سيد الأخلاق، وقد بلغ درجة الكمال فيه، وكل حليم قد عرفت عنه زلة وحفظت عنه هفوة إلا هو، كان لا يزداد مع كثرة الأذى إلا صبراً، ولا مع إسراف الجاهل في مخاطبته إلا حلمًا.

ولما حدث له يوم غزوة أحد ما حدث من أذى المشركين، قيل له: يا رسول الله لو دعوت عليهم؟ فقال: «إني لم أبعث لعانًا ولكني بعثت داعيًا ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

قالت عائشة رضي الله عنها: «ما خير رسول الله ﷺ في أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه، وما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها».

وأما عفوه ﷺ فكان مضرب الأمثال وحسبنا دليلاً على ذلك أنه مع ما لاقاه من قريش في صدهم إياه عن سبيل الله وعنادهم وإمعانهم في إيذائه ومحاربته، كان عليه الصلاة والسلام عفواً كريم الخلق معهم، فلما نصره الله عليهم بفتح مكة

وحكمه الله فيهم. قال لهم: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «أقول لكم كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وعفا الله عنهم عفو القادرين.

وكان أشد الناس حياءً وأكثرهم عن الهفوات إغضاء ﷺ وكان يقول: «الحياء شعبة من الإيمان».

أما الجود والسخاء والشجاعة والنجدة وحسن العشرة وبسط الخلق وسعة الصدر والأناة والحكمة ولين العريكة والشفقة والرأفة والرحمة وحسن اللقاء ولطف الحديث وإكرام الجليس والوفاء بالعهد وصلة الرحم وكل الخلال الحميدة فكانت فيه سجية وفطرة، قربت إليه النفوس وحببت إليه القلوب: ﴿... **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ... ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران]. وكان هذا الكمال الخلقي والسمو النفساني هو آية الله في صدق نبوته وحجة رسالته، وكان في ذلك كله سر نجاح دعوته.

فاللهم الهم المسلمين حسن الاقتداء وجميل الأسوة برسولهم، ومكن لهم في الأرض بصالح أعمالهم وصادق العمل بكتاب ربهم وسنة نبيهم، أيها المسلمون: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ... ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران]، ﴿... **وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران].

* * *

٦٩ - الصلاة

* * *

قال الله تعالى: ﴿... إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء]. فرضت الصلاة بمكة ليلة الإسراء والمعراج قبل الهجرة النبوية بسنة وهي أعظم أركان الإسلام ومن أجل الشعائر الدينية وأقوم شعب الإيمان، وقد شرعت الصلاة لحكم عظيمة وأسرار عجيبة، فيها يزكوا الإيمان ويقوى اليقين وتعظم الثقة بالرحمن، وتمتلئ النفس من هيبة صاحب الملك والعظمة والسلطان وتجتنب الفواحش ما ظهر منها وما بطن وتكف عن الفسوق والعصيان، قال الله تعالى: ﴿... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت]، وهذه الصلاة هي التي تكون لصاحبها يوم القيامة نوراً وبرهانًا ونجاة من النيران. ذكر رسول الله ﷺ يومًا فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة».

* * *

٧٠ - الصوم

* * *

قال الله تعالى في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة].

فرض الله صيام رمضان في السنة الثانية للهجرة وقد جعل الله سبحانه وتعالى الصوم عبادة عامة لنا ولمن سبقنا من الأمم لحسن نتائجه وعظيم فوائده، وقد وجد أن بعض الحيوانات تصوم مدة لا تقرب فيها الطعام فهو:

١- يقوي النفوس ويعدها للتقوى ومراقبة الله في السر والعلانية، وبذلك يستطيع الإنسان أن يتقي ما توسوس به نفسه من الآثام ويحملها على أداء الفرائض والواجبات.

٢- يعرف الناس قيم النعم الإلهية ومقدارها عند فقدها فيشكرون المنعم بها عمليًا وتفيض أيديهم بالبذل والإنفاق والإحسان في وجوه البر.

٣- يذكر الأغنياء بحال الفقراء، سئل يوسف عليه السلام لم تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ قال: أخشى أن أشبع فأنسى الجائع.

٤- تخليص البدن من كثير من أمراض التخمة ويعود الإنسان الصبر على المكاره، واحتمال الشدائد فينخلق فيه الرجولة وقوة العزيمة.

* * *

٧١ - الزكاة

* * *

قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة].

شرعت الزكاة في السنة الثانية من الهجرة وقد أكد الله وجوبها على المؤمنين الموسرين فذكرها مقترنة مع الصلاة في كثير من آيات الذكر الحكيم تآكيداً لطلبها وتنويهًا بفضلها العظيم. كذلك بين رسول الله ﷺ درجة الزكاة ومنزلتها من الدين فجعلها ركنًا من أركان الإسلام وقاعدة في بنائه المتين «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»، وقد شرعها الإسلام العظيم لجليل فوائدها وحسن نتائجها فهي مظهر من مظاهر شكر النعمة وهي تظهر النفوس من دنس البخل والشح وتعودها الجود والكرم وتجعلها دائمًا تنزع إلى الخير وفعل البر وبذلك تسعد الإنسانية ويصبح الناس في طمأنينة وسلام وأمن وأمان ولو كانت الزكاة تصرف وتعطى لأربابها كما أمر الله لكنا لا نرى فقيراً معدمًا ولا لصًا سارقًا ولا قاطع طريق ولا جيشًا عاطلاً من المستولين الذين يعتبرون وصمة عار في جبين الأوطان ولا مصدر خطر في كل زمان.

* * *

٧٢ - فريضة الحج

* * *

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ... ﴿٢٧﴾﴾ [الحج].

فرض الحج في السنة السادسة من الهجرة وهو من أعظم أركان الإسلام وأجل شعب الإيمان، فرضه الله تعالى في العمر مرة واحدة على المستطيع من عبادة لا فرق بين ذكر وأنثى، وهو الركن الاجتماعي العظيم الذي تتجلى فيه الوحدة الإسلامية، فترى حجاج بيت الله هنالك إخوانًا متحابين وأعوانًا في الخير متناصرين تربط بين قلوبهم روابط الإخاء والوئام، وتأتلف نفوسهم في أطهر بقاع الأرض التي سطع في آفاقها نور الإسلام وهبط فيها الوحي من السماء على خير الأنام، وقد ذكر الحج في غير سورة من القرآن الكريم مع الإشارة إلى ما له من عظيم المنافع حثًا على آدائه قال الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ... ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة]، وقال سبحانه: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ... ﴿٢٨﴾﴾ [الحج]، وقال رسول الله ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[١].

* * *

(١) متفق عليه.

٧٣ - حياة الرسول ﷺ
في المدينة في عشر سنين

***

بعد أن اشتدت وطأة مشركي مكة على رسول الله ﷺ وعلى من آمن به. أذن له بالهجرة إلى يثرب. فخرج ﷺ من مكة في أواخر شهر صفر، واختبأ في غار ثور من المشركين ثلاث ليال وخرج من الغار آخر الليل غرة ربيع الأول يوم الإثنين فوصل إلى المدينة يوم الإثنين الثامن من شهر ربيع. وأقام في بني عمر بن عوف بقية يوم الإثنين وأيام الثلاثاء والأربعاء والخميس، أسس في تلك المدينة مسجد قباء الذي ورد فيه أنه أول مسجد أسس على التقوى. وفي صباح يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سار عليه الصلاة والسلام قاصداً نحو المدينة مع بعض الصحابة الأطهار فأدركته صلاة الجمعة في منازل بني سالم بن عوف وصلاها في المسجد الذي في بطن وادي رنوناء. فكانت أول جمعة في الإسلام، وبعد الصلاة ركب ناقته طالبًا المدينة فوصل إليها في اليوم نفسه، فحفلت بمقدمه أيما احتفال، ومن ذلك التاريخ أخذت مكانتها تعلو على جميع بلاد الإسلام، مكث فيها الرسول ﷺ عشر سنوات كاملة إلى أن جاءه أمر الله فتوفي فيها يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة وله من العمر ثلاث وستون سنة.

وفي هذه المدة القليلة المدى الكثيرة البركة كملت أحكام الدين وتوطدت أركانه، نزل على النبي ﷺ من القرآن في هذه السنين العشر اثنتان وثلاثون سورة من طوال سور القرآن الكريم، وغزا في تلك المدة ستًا وعشرين غزوة أو سبعًا

وعشرين. قاتل في تسع منها: بدر وأحد والخندق وقريظة والمصطلق وخيبر والفتح وحنين والطائف، والغـزوات الكبار الأمـهات سـبع: بدر وأحد والخنـدق وخيـبر والفتح وحنين وتبـوك، وفي شأن هذه الغزوات نزل القرآن الكريم فـسورة الأنفال بينت غـزوة بدر، وفي غزوة أحد نزل آخـر سورة آل عـمران، وفي قـصة الخندق وقريظة وخيـبر نزلت سورة الأحزاب، كـما نزلت سورة الحشر في بـني النضير، وفي قصة الحديبـية وخيبر كانت سورة الفـتح وأشير فيها إلى الفـتح نفسه أي فتح مكة.

وجرح ﷺ في غزوة أحد وأمده الله بالملائكة في بدر وحنين والخندق حيث زلزلت المشركين وهزمتهم ورمى رسول الله ﷺ الحصباء في وجوه المشركين فهربوا وكان الـفتح في غـزوتين وقاتل بالمنجنيـق في غزوة الطائف وتحـصن بالخندق في واحدة وهي الأحـزاب. أما السرايا والبـعوث فتـزيد على ستين وأمـا الوفود التي وفدت إليه فتربو على السبعين وزادها بعضهم على مائة.

* * *

٧٤ - حجة الوداع

* * *

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ... ۝٣﴾ [المائدة].

بعد أن عاد رسول الله ﷺ من تبوك بعث أبا بكر رضي الله عنه في ذي القعدة إلى مكة سنة تسع من الهجرة ليحج بالناس، وفي أواخر ذي القعدة في السنة العاشرة قام عليه الصلاة والسلام إلى مكة في جمع عظيم وأحرم بالحج عندما سارت به راحلته، وقال: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك». ولم يزل سائرًا حتى دخل مكة ضحوة يوم الأحد لأربع خلون من ذي الحجة وكان دخوله من ثنية كذا فطاف بالبيت سبعًا واستلم الحجر الأسود وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم وشرب من ماء زمزم وسعى بين الصفا والمروة سبعًا راكبًا على راحلته، وفي الثامن ذي الحجة توجه إلى منى فبات بها، وفي التاسع منها توجه إلى عرفة وخطب خطبته الشهيرة بخطبة الوداع، وفي يومها أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ ... الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ... ۝٣﴾ [المائدة].

وكان ابتداء خطبته بعد الثناء على الله تعالى بقوله: «أيها الناس اسمعوني أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. ثم قال: أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم حرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها»، ثم قال: «أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقًا ولكن عليهن

حقًا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحد تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة، أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ولا يحل امرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتكم به لن تضلوا كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد»، ثم قال: «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ الله اشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع».

وقد اشتملت هذه الخطبة العظيمة على غير ذلك من أحكام الله تعالى وحدوده، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى عليه في ذلك اليوم الآية المذكورة.

* * *

٧٥ - مرض الرسول ﷺ

* * *

مشى محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ إلى المسجد مضطرب الجسم مصدوع الرأس فجلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إني قد دنا مني حفوق من بين أظهركم فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخشى الشحناء من قبلي فإنها فليست من شأني، ألا وإن أحبكم إليّ من أخذ مني حقًا إن كان له، أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس».

ثم نزل رسول الله ﷺ فصلى الظهر ورجع إلى المنبر، وعاد إلى مقالته الأولى فادعى عليه رجل بثلاثة دراهم فأعطاه عوضها ثم قال: «أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل فضوح الدنيا إلا وأن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة. وادعى عليه عكاشة فكشف له جسمه الشريف ليتقيد منه فلثمه، وأراد بعض الصحابة أن يفعل كفعله فقال له: سبقك بها عكاشة. ثم أوصى بالأنصار خيراً. فقال: يا معشر المهاجرين أصبحتم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد والأنصار عتبتي التي أويت إليها فأكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم.

واشتد المرض برسول الله ﷺ فسأل نساءه أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها فأذن له، فلما اشتد به ﷺ الألم جعل يأخذ الماء بيده ويجعله على رأسه، ويقول: «وا كرباه» فتقول فاطمة بنت محمد: «وا كربي لكربك يا أبتي» فيقول رسول الله ﷺ: «لا كرب على أبيك بعد اليوم».

هذه يثرب مدينة الرسول ﷺ قد نزل بها هول غير منتظر أصبحت تشهد رسول الله ﷺ يمشي إلى صلاة الصبح فيكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم فرحًا برؤياه واطمئنانًا إلى شفائه، وقد غلب إلى ظنهم أن رسول الله ﷺ قد أفاق من ألمه، وما هي إلا أيام حتى يعود إلى مجالستهم ومخالطتهم، فما يمسي عليهم مساء اليوم نفسه حتى يمزق الجو البكاء وإذا الناس يغلبهم الإنكار فلا يصدقون وتضطرب القلوب وتنبعث الآهات والصرخات، فأما عمر الحصيف فينجبله الحزن، وأما عثمان فينخرص، وأما علي فيكبله المصاب وأما فاطمة فتبكي لانقطاع الوحي من السماء. هذا جيش أسامة مرابط للرحيل وكان قد صدر أمر رسول الله ﷺ بإيفاده اقتصاصًا من الروم في موقعة مؤتة فراح أسامة بن زيد يتجهز للسفر ويستعد لهذه الوثبة العربية الأولى إلى خارج الجزيرة وإذا برسول الله ﷺ يثقل عليه المرض وفتحت له أبواب السماء، وأقبلت عليه الملائكة أفواجًا تحمل إليه روح الله ورحمته وتبشره بجوار ربه، فتصعد روحه الكريمة الطاهرة إلى الملأ الأعلى وإلى جوار الله جل جلاله وعزت قدرته.

ابتداء المرض برسول الله ﷺ في أواخر شهر صفر في سنة إحدى عشرة للهجرة وأغلب الروايات تدل على أنه كان ليلة الأربعاء وذلك أن رسول الله ﷺ قال لمولاه أبا مويهة في جوف الليل إني قد زمرت أن أستغفر لأهل البقيت فانطلق معي فانطلق معه فلما وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه لو تعلمون ما نجاكم الله منه أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها الأخيرة شر من الأولى»، ثم أقبل على أبي مويهة هل علمت إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة وخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة فاخترت لقاء ربي والجنة»، فقال أبو مويهة بأبي وأمي فخذ مفاتيح خزائن الأرض والخلد فيها ثم الجنة. قال: «لا والله يا أبا مويهة

لقد اخترت لقاء ربي والجنة». ثم ذهب بعد ذلك إلى قتلى أحد فصلى عليهم فرجع معصوب الرأس إلى بيت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت عائشة رضي الله عنها: لما رجع من البقيع وجدني وأنا أقول (وا رأساه) فقال رسول الله ﷺ: «ذاك لو كان وأنا حي فاستغفر لك وأدعو لك» فقلت: واثكلتاه، والله إني لأظنك تحب موتي ولو كان ذلك لظللت آخر يومك معرسًا ببعض أزواجك. فقال النبي ﷺ: «بل أنا وارأساه لقد هممت أو أردت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد أن يقول القائل أويتمن المتمنون»، ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون إلا أبا بكر. وفي رواية أخرى رواها الإمام أحمد في مسنده عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ في اليوم الذي بدئ فيه فقلت: «وارأساه»، فقال: «وددت أن ذلك كان وأنا حي فهيأتك ودفنتك»، قالت: فقلت غيري كأني بك في ذلك اليوم عروسًا ببعض نسائك، قال: «وأنا وا رأساه أدعي إليَّ أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتابًا فإني أخاف أن يقول قائل أو يتمنى متمن أنا أولى ويأبى الله عز وجل والمؤمنون إلا أبا بكر»، وهذا الحديث أصله في صحيح مسلم.

وروى الإمام أحمد وغيره من طرق عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه: «أدعي لي عبد الرحمن بن أبي بكر أكتب لأبي بكر كتابًا لا يختلف عليه أحد بعدي»، ثم قال: «دعيه معاذ الله أن يختلف المؤمنون في أبي بكر»، وفي هذه الرواية صراحة من رسول الله ﷺ في خلافة أبي بكر بعده. وقد وقع ذلك فعلاً كما سيأتي تفصيله في المصادر والمراجع التاريخية في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ابتداء المرض برسول الله ﷺ الصداع بعد الصداع اعترته الحمى وقال بعض الرواة: أصابه عرق في الكلية، والذي صرح به ﷺ كما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها

قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلته بخير فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم»، فمن ذلك التسمم تداعت أسباب تلك الأوجاع كلها، وكان وجعه ﷺ شديداً كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فمسسته فقلت: إنك لتوعك وعكًا شديداً. قال: «أجل كما يوعك دجلان منكم»، قلت: ذلك بأن لك أجرين. قال: «أجل ذلك كذلك ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها».

وكان ﷺ في مرضه يدور على أزواجه وهن يومئذ تسع حتى اشتد به المرض في بيت ميمونة، قالت عائشة رضي الله عنها: لما ثقل رسول الله ﷺ واشتد به وجعه استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذن له، فخرج بين رجلين تخط رجلاه في الأرض بين العباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر. قال عبد الله بن العباس رضي الله عنه: الرجل الآخر الذي لم تسم عائشة هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان دخوله ﷺ بيت عائشة رضي الله عنها يوم الإثنين بعد ستة أيام من ابتداء مرضه، وكان موته يوم الإثنين الذي يليه كما في رواية ابن أبي مليكة وهذا يوافق ما رواه القسطلاني في المواهب عن الحافظ ابن رجب قال: كان ابتداء مرضه ﷺ في أواخر شهر صفر وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يومًا في المشهور.

قالت عائشة رضي الله عنها: بعدما دخل بيتي النبي ﷺ واشتد وجعه قال: «أهريقوا عليّ من سبع قرب لم تحل أوكيتهن لعلي أعهد إلى الناس»، فأجلسناه في مخضب - هو إناء يشبه الطست لحفصة زوج النبي ﷺ ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده إن قد فعلتن، قالت: ثم خرج إلى الناس فصلى بهم، وكان خروجه يوم الخميس بعد أن مكث في بيت عائشة رضي

الله عنها ثلاثة أيام، وقد شد رأسه بعصابة دسماء فرقى المنبر فجلس عليه مصفر الوجه، وأمر بلالاً فنادى في الناس أن اجتمعوا لوصية رسول الله ﷺ فاجتمعوا كبيرهم وصغيرهم، وتركوا أبواب بيوتهم مفتحة وغص المسجد بمن فيه، ثم قام فخطبهم خطبة بليغة فكان أول ما تكلم به ﷺ صلى على قتلى أحد، واستغفر لهم، ثم قال: «إني بين يديكم فرط وأنا شهيد عليكم وإن موعكدم الحوض وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها»، ثم قال: «إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده»، فبكى أبو بكر وبكى، فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك يا أبا بكر» قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فعجبنا له، وقال الناس انظروا إلى هذاالشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخبر، وكان أبو بكر أعلمنا به، ثم قال رسول الله ﷺ: «أن أمن الناس علي بماله به وصحبته أبو بكر ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر»، ثم أوصى بإنفاذ جيش أسامة رضي الله عنه، وأوصى الأنصار، فقال: «يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم عتبتي التي آويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم»، ثم إن الأنصار لما رأوا رسول الله ﷺ يزداد وجعًا طافوا بالمسجد فدخل العباس فأعلم رسول الله ﷺ بمكانهم وإشفاقهم، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك، ثم دخل عليه علي بن أبي طالب كذلك، فخرج ﷺ متوكئًا على عليّ، والفضل والعباس أمامه والنبي ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاه من المنبر،

وثار الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «يا أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد نبي قبلي فيمن بعث إليه فأخلد فيكم؟ إلا أني لاحق بربي، وأنكم لاحقون به، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصي المهاجرين فيما بينهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر]، وأن الأمور تجري بإذن الله تعالى، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم في الثمار؟ ألم يوسعوا لكم في الدار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟ ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم، ألا ولا تستأثروا عليهم، ألا وأني فرط لكم، وأنتم لاحقون بي، ألا وأن موعدكم الحوض إلا من أحب أن يرده علي غداً فليكف يده ولسانه إلا فيما ينبغي، يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم وتبدل القسم، فإذا بر الناس بربهم أئمتهم - رفعهم، وإذا فجر الناس عقولهم - أزالهم»، ثم نزل رسول الله ﷺ وتتام به وجعه ولم يخطب على المنبر بعد ذلك فكانت هذه آخر خطبة له.

* * *

٧٦ - اشتداد المرض

***

اشتد بعد ذلك المرض على رسول الله ﷺ وتخلف عن الصلاة بالناس فاجتمع الناس في المسجد حسب عادتهم للصلاة وأذنوا رسول الله ﷺ بها، فهم ﷺ بالخروج فعجز، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، فقالت له عائشة رضي الله عنها: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس. فقال ﷺ: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، فقالت عائشة رضي الله عنها لحفصة بنت عمر بن الخطاب، قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصل بالناس، ففعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ: «إنكن لأنتن كصواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس»، فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيراً. قالت عائشة رضي الله عنها: لقد راجعت رسول الله ﷺ في ذلك وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً، وإني كنت أرى أنه لن يقوم مقامه أحد إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله عن أبي بكر. قالت عائشة رضي الله عنها: ثم ثقل رسول الله فقال: «أصلى بالناس؟» قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: «ضعوا لي ماء في المخضب»، قالت: ففعلنا فاغتسل به ثم ذهب ينوء فأغمى عليه ثم أفاق، فقال: «أصلى بالناس؟» قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قالت: والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء الأخيرة، قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فأتاه الرسول، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس، فقال أبو بكر وكان رقيقًا: يا عمر صل بالناس. فقال عمر: إنك أحق بذلك.

فصلى بهم أبو بكر تلك الأيام. وقد ورد في تقديم أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الصلاة جملة أحاديث عن كثير من الصحابة منهم عائشة وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وعبد الله بن زمعة وابن سعيد وعلي بن أبي طالب وحفصة أم المؤمنين، وقد قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: إن هذا الحديث متواتر.

ثم إن رسول الله ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين أحدهما العباس رضي الله عنه، والثاني علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لصلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب يستأخر فأومأ إليه النبي ﷺ أن لا يتأخر، وقال لهما: «اجلساني إلى جنبه»، فأجلساه إلى جنب أبي بكر، فكان أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة رسول الله ﷺ والناس يصلون بصلاة أبي بكر والنبي ﷺ قاعد.

قال عبد الله بن زمعة بن الأسود: لما استعز برسول الله ﷺ وأنا عنده في نفر من المسلمين، قال: دعاه بلال إلى الصلاة، فقال: «مروا من يصلي بالناس»، قال: فخرجت فإذا عمر في الناس وكان أبو بكر غائبًا فقلت: قم يا عمر فصلي بالناس. قال فقام فلما كبر سمع رسول الله ﷺ صوته وكان عمر رجلاً مجهراً، قال فقال رسول الله ﷺ: «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون»، مرتين. قال: فبعث إلى أبي بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس. قال عبد الله بن زمعة: قال لي عمر: ويحك ماذا صنعت بي يا ابن زمعة والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله ﷺ أمرك بذلك، ولولا ذلك ما صليت بالناس، قال: قلت والله ما أمرني رسول الله ﷺ بذلك ولكني حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس. رواه ابن هشام عن ابن إسحاق.

وكان رسول الله ﷺ من شدة وجعه يغمى عليه ثم يفيق وأغمى عليه مرة

فاجتمع إليه نساء من نسائه أم سلمة وميمونة، وسناء من نساء المسلمين منهن أسماء بنت عميس وعنده العباس عمه فأجمعوا أن يلدوه فأذابوا قسطًا بزيت ولدوه به. واللدود هو ما يجعل في جانب الفم من الدواء، فلما أفاق رسول الله ﷺ قال: «من صنع هذا بي؟» قالوا: يا رسول الله عمك، قال: «هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه (الأرض)» وأشار نحو أرض الحبشة. قال: «ولم فعلتم ذلك؟» فقال عمه العباس: خشينا يا رسول الله أن يكون بك ذات الجنب. فقال: «إن ذلك لداء ما كان الله ليقذفني به، لا يبق في البيت أحد إلا لدَّ إلا عمي»، فلقد لدت ميمونة وإنها لصائمة لقسم رسول الله ﷺ عقوبة لهم بما صنعوا به. رواه ابن إسحاق وأصله في البخاري.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه نعى لنا رسول الله ﷺ نفسه قبل موته بشهر، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت عائشة فقال: «حياكم الله بالسلام رحمكم الله، جبركم الله، رزقكم الله، نصركم الله، رفعكم الله، آواكم الله، أوصيكم بتقوى الله، واستخلفه عليكم واحذركم الله، إني لكم نذير مبين أن لا تعلوا على الله في بلاده وعباده، فإنه قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص]، وقال: ﴿... أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر]». قلنا: يا رسول الله متى أجلك؟ قال: «دنا الفراق والمنقلب إلى الله وإلى جنة المأوى»، قلنا: يا رسول الله من يغسلك؟ قال: «رجال أهل بيتي الأدنى فالأدنى»، قلنا: يا رسول الله فيم نكفنك؟ قال: «في ثيابي هذه وإن شئتم في بياض ثياب مصر أو حلة يمنية»، قلنا: يا رسول الله من يصلي عليك؟ قال: «إذا أنتم غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري هذا على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلي عليّ جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل، ثم ملك الموت ومعه جنود من الملائكة، ثم ادخلوا علي

فوجًا فوجًا، فصلوا عليّ وسلموا تسليمًا، وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي ثم نساؤهم واقرءوا السلام على من غاب من أصحابي، ومن تبعني على ديني، من يومي هذا إلى يوم القيامة». قلنا: يا رسول الله ومن يدخلك قبرك؟ قال: «أهلي والملائكة». روى كل ذلك القسطلاني في المواهب.

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان أزواج النبي ﷺ عنده لم تغادر منهن واحدة فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تمشي ما تخطئ مشيتها عن مشية رسول الله ﷺ فلما رآها رحب بها وقال: «مرحبًا بابنتي» ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ثم سارها فبكت بكاءً شديدًا، فلما رأى جزعها سارها الثانية فضحكت»، فقلت لها: خصك رسول الله ﷺ من بيننا بالسر ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله ﷺ سألتها ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره، قالت: فلما توفي رسول الله ﷺ قلت: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ. قالت: أما الآن فنعم، أما حين سارني في المرة الأولى فأخبرني «أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة، وأنه عارضه الآن مرتين»، وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري فإنه نعم السلف أنالك». قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت. فلما رأى جزعي سارني الثانية فقال: «يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه الأمة؟ فأخبرني أني أول أهله يتبعه، قالت: فضحكت ضحكي الذي رأيت. رواه مسلم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما حضر رسول الله ﷺ الوفاة في البيت رجال. فقال النبي ﷺ: «هلموا أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده»، فقال بعضهم إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا منهم من يقول قربوا يكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده، ومنهم من

يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله ﷺ: «قوموا»، ثم قال: «دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه»، وأوصاهم بثلاث قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم»، وسكت الراوي وهو سعيد بن جبير عن الثالثة أو قال نسيها. وقال رسول الله ﷺ: «لعن الله اليهود والنصاري اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا، قالت عائشة رضي الله عنها لولا ذلك لأبرز قبره خشي أن يتخذ مسجداً. رواه البخاري.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما خرج علي بن أبي طالب من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئًا فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا. فقال عليّ: أنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعنا لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: إن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الإثنين وأبو بكر الصديق يصلي لهم لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة رضي الله عنها فلما وضح لنا وجه رسول الله ﷺ ما نظرنا منظراً قط كان أعجب إلينا من وجه رسول الله ﷺ حين وضح لنا، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة. قال أنس رضي الله عنه: وهم المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ،

فأشار إليهم رسول الله ﷺ بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر. رواه البخاري وكانت صلاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالناس في مرضه ﷺ سبع عشرة صلاة.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان إذا اشتكى تعني رسول الله ﷺ نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفث وأمسح بيد النبي ﷺ. قالت عائشة رضي الله عنها: إن من نعم الله عليّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري، ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته، دخل عليّ عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وبيده سواك وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم فتناولته فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فلينته، فأمره وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فجعل يدخل يديه الماء فيمسح بهما وجهها يقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات»، ثم نصب يديه فجعل يقول «في الرفيق الأعلى». وقالت عائشة رضي الله عنها: ولما احتضر النبي ﷺ واشتد به الأمر قالت: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على النبي ﷺ. قالت: وكان عنده قدح من ماء فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ويقول: «اللهم أعني على سكرات الموت» ولما تغشاه ﷺ الكرب قالت فاطمة رضي الله عنها: وا كرب أبتاه. فقال لها: «لا كرب على أبيك بعد اليوم». روى كل ذلك البخاري وروى البيهقي أنه كان عند رسول الله ﷺ في مرضه سبعة دنانير فكان يأمرهم بالصدقة بها، ثم يغمى عليه فيشتغلون بوجعه، فدعا بها فوضعها في كفه فقال: «ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه» ثم تصدق بها كلها.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: «إنه

لـم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير بين الدنيا والآخرة»، فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه ثم أفاق فـأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال: «اللهم الرفـيق الأعلى»، فـقلت: إذا لا يختـارنا وعـرفت أنه الحديث الذي كـان يحدثـنا وهو صحيـح، قلت: فكان آخر كلمـة تكلم بها «اللهم الرفـيق الأعلى، اللهم اغفر لي وارحمني والحقني بالرفيق الأعلى»، قالت عائشة رضي الله عنها: توفي النبي ﷺ ودرعه مـرهونة عند يهودي بثلاثين يعـني صاعًا من شعـير. رواه البخاري.

* * *

٧٧ - وفاة رسول الله ﷺ

***

توفي رسول الله ﷺ وانتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ومن جوار المخلوق إلى جوار الخالق، ومن الحطام الزائل إلى النعيم الأبدي وفاضت روحه الشريفة إلى لقاء ربها يوم الإثنين حين زاغت الشمس الموافق لليوم الثامن من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، ويوافق من الأشهر الشمسية ٣ يونية سنة ٦٣٢ من ميلاد عيسى عليه السلام، ويوافق من البروج فصل الجوزاء. وقد بلغ ﷺ من العمر ثلاثًا وستين سنة كاملة على أصح الروايات.

ولما قبض رسول الله ﷺ وارتفعت الرنة عليه دهش أصحابه دهشة عظيمة وركت عقولهم وطاشت أحلامهم، وأفحموا واختلطوا وصاروا فرقًا، وكان ممن اختلط عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فجعل يصيح ويحلف ما مات، وأقعد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فلم يستطع حراكًا وأخرس عثمان بن عفان رضي الله عنه فكان يذهب به ويجاء ولا يستطيع كلامًا واضطرب الأمر وجل الخطب، وفدحهم هول مصيبته وحق لهم، ولم يكن فيهم أثبت من العباس بن عبد المطلب وأبي بكر الصديق، وكان أبو بكر غائبًا «بالسنح» وهي العالية عند زوجته بنت خارجة، وكان رسول الله ﷺ قد أذن له في الذهاب إليها، فأقبل أبو بكر على فرس له من مسكنه حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها فبصر رسول الله ﷺ وهو مسجي ببرد حبرة فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله ثم بكى، وقال: بأبي أنت وأمي طبت حيًا وميتًا، والذي نفسي بيده لا يجمع عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها. ثم خرج أبو بكر رضي الله عنه فوجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه سالاً سيفه

متوعداً من يقول مات رسول الله ﷺ وهو يقول: لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ إلا ضربته بسيفي هذا، إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى عليه السلام فلبث عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، والله إني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم. فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أيها الحالف على رسلك: فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله تعالى أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران]، فنشج الناس يبكون، قال عمر: فوالله لكأني لم أتل هذه الآيات قط والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرقت حتى ما تقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات. وقال عمر: والله، إن كان الذي حملني على مقالتي إلا أني كنت أقرى هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة]، فوالله إن كنت لأظن أن رسول الله ﷺ سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها، فإنه للذي حملني على الذي قلت ما قلت. قال ابن عباس رضي الله عنهما: والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس منه كلهم فما سمع بشر من الناس إلا يتلوها فكان يخطب الناس ويهدؤهم وعيناه تهملان وزفراته تتردد في صدره، وغصصه تتصاعد، فلما فرغ من خطبته التفت إلى عمر وقال له: أما علمت أن رسول الله ﷺ قال يوم كذا، كذا وكذا يذكره بما قاله عن موته ﷺ فقال عمر: أشهد أن الكتاب كما نزل وأن الحديث كما حدث وأن الله تبارك وتعالى حي لا يموت، إنا لله وإنا إليه راجعون.

٧٨ - غسله ﷺ

روى ابن ماجـه بسند جيـد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أنا مت فاغـسلوني بسبع قرب من بئري بئـر غرس»، وقد تولى غسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وعـمه العباس والفضل بن عـباس يعينانه وقثم بن العباس وأسـامة بن زيد وشقران مولاه ﷺ يصبون الماء وأعـينهم معصوبة من وراء الستر، فغسل ﷺ ثلاث غسلات الأولى بالماء القراح والثانية بالماء والسدر والثـالثة بالماء والكافـور، وكان علي رضي الله عنه يقـول وهو يغسـل رسول الله ﷺ: بأبي أنت وأمي طبت حيًا وميتًـا، وجعل علي على يده خرقة وأدخلها تحت القميص ثم اعتصروا قميصه وحنطوا مساجده ومفاصله ووضئوا منه ذراعيه ووجهه وكفيه وقدميه وجمروه عودصا وندًا.

* * *

٧٩ - كفنه ﷺ

* * *

قالت عـائشة رضي الله عنهـا: كفن رسـول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرفس ليس فيها قميس ولا عمامة، ثم بعد تكفينه نزع القميص الذي غسل فيه. رواه ابن ماجه وغيره.

* * *

٨٠ - الصلاة عليه ﷺ

* * *

روى ابن ماجه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما فرغوا من جهازه ﷺ يوم الثلاثاء وضع على سريره في بيته، ثم دخل الناس عليه ﷺ أرسالاً يصلون عليه حتى إذا فرغوا دخل النسائى، حتى إذا فرغن دخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد، فأول من صلى عليه حسب وصايته ﷺ أهل بيته، ولما أراد الناس أن يصلون عليه ولم يدر ما يقولون فسألوا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فأمرهم أن يسألوا عليًّا رضي الله عنه فقال لهم: قولوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ... ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].. لبيك الله ربنا وسعديك، صلوات الله البر الرحيم والملائكة المقربين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وما سبح لك من شيء يا رب العالمين على محمد بن عبد الله خاتم النبيين وسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين الشاهد البشير الداعي إليك بإذنك السراج المنير وعليه السلام. روى ذلك القسطلاني في المواهب.

* * *

٨١ - دفنه ﷺ

***

تفاوض الصحابة رضي الله عنهم في مدفـن النبي ﷺ، فقال بعضهم ندفنه بمكة بلده الذي ولد بهـا، وقال بعضـهم: بل ندفنه بمسجـده، وقال بعـضهم: بل بالبقيع، وقـال آخرون: بل في بيت المقدس مدفن الأنبياء، فـقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: سـمعت رسول الله ﷺ يقـول: «ما من نبي يقـبض إلا دفن تحت مضجعه الذي مات فيه» فاعتمد الصحابة على خبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه المرفـوع إلى النبي ﷺ وكـانت وفاته في بـيت أم المؤمنين عائـشة رضي الله عنهـا فقاموا بذلك.

فحفر قـبره ﷺ أبو طلحة زيد بن سهل في مواضع فراشـه حيث قبض في بيت عائشة رضي الله عنهـا، وبنى في قبره «تسع لبنات» وفرش مـولاه شقران في قبر قطيـفة نجرانية كان يتغطى بهـا، وقال: والله لا يلبسها أحد بعـدك، ونزل قبره ﷺ عمه العباس وعلي بن أبي طالب وقثم بن العباس والفضل بن العباس وأنزلوا رسول الله ﷺ في القـبر وواروه ليلة الأربعاء، ورش قبـره الشريف بلال بن رباح بقربة بدأ من قبل رأسه وجـعل عليه حصباء حمراء وبيـضاء ورفع قبره من الأرض قدر شبه.

ولما دفن رسول الله ﷺ جاءت فاطمـة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ، فقالت: كـيف طابت نفوسكم أن تحثوا على رسـول الله ﷺ التراب،° وأخذت من تراب القبر الشريف ووضعته على عينيها وأنشأت تقول:

ماذا عليَّ من شم تربة أحمد   أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبت على مصائب لو أنها   صبت على الأيام عدن لياليا

روى ذلك القسطلاني في المواهب.

* * *

الكشاف العام

١ - الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

* * *

٣ - الأماكن الجغرافية

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

٣ - القبائل والبطون

(أ)

(ب)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

٤ - الآيات القرآنية

٥ - الأحاديث النبوية

٦ - الأشعار

٧ - الكتب الواردة في النص

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ن)

(هـ)

(و)

مصادر ومراجع التحقيق

١ - أخبار القضاة: لوكيع محمد بن خلف (ت ٣٠٦ هـ) عالم الكتب - بيروت.

٢ - الإرشاد في معرفة علماء الحديث: لأبي يعلى الخليل بن عبد الله بن أحمد بن الخليل الخليلي القزويني (ت ٤٤٦هـ) - الرياض ١٩٨٩م.

٣ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لابن عبد البر يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣هـ) - تحقيق علي محمد البجاوي - نهضة مصر ١٩٧٨م.

٤ - أسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير: علي بن محمد عز الدين (ت ٦٣٠هـ) -القاهرة - ١٩٧٠م.

٥ - الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) - نهضة مصر - القاهرة - ١٩٨٧م.

٦ - الأعلام: الزركلي خير الدين (ت ١٣٩٦هـ) القاهرة - ١٣٤٤هـ - ١٣٥٩هـ.

٧ - الإعلام بوفيات الأعلام: للذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) - مخطوطة مصورة من الظاهرية رقم ٤٥٤٧ عام.

٨ - الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ: للسخاوي محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ) تحقيق فراتزروزنتال - بغداد ١٩٦٣م.

٩ - الأغاني: الأصبهاني أبي الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ) تحقيق عبد الستار فراج.

١٠ - الإكمال: لابن ماكولا علي بن هبة الله (ت ٤٥٧هـ) تحقيق عبد الرحمن المعلمي - حيدر آباد ١٩٦٧م

١١ - الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة: أبي عمر يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣هـ) - القاهرة - ١٢٨٢هـ.

١٢ - الأنساب: للسمعاني عبد الكريم بن محمد (ت ٥٦٢هـ)
ليدن ١٩١٢م.

١٣ - الأنساب المتفقة: لابن القيسراني محمد بن طاهر (ت ٥٠٧هـ)
ليدن ١٨٦٥م.

١٤ - البداية والنهاية: لابن كثير إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)
القاهرة ١٣١٥هـ - ١٣٥٨هـ.

١٥ - التاريخ: لخليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ)
تحقيق: أكرم ضياء العمري - دمشق ١٩٧٧م.

١٦ - التاريخ: لأبي زرعة الدمشقي: عبد الرحمن بن عمرو (ت ٢٨١هـ)
تحقيق شكر الله القوجاني - دمشق ١٩٧٣م.

١٧ - التاريخ: ليحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ)
تحقيق: أحمد محمد نور - مكة المكرمة ١٩٧٩م.

١٨ - تاريخ الإسلام: للذهبي محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)
القاهرة - ١٩٧٠م.

١٩ - تاريخ الأمم والملوك: للطبري محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٥م.

٢٠ - تاريخ بغداد: للخطيب البغدادى: أحمد بن على (ت ٤٦٣هـ).
القاهرة - ١٩٣١م.

٢١ - تاريخ الخميس: للديار بكري: حسن بن محمد (ت ٩٦٦هـ)
القاهرة - ١٢٨٣هـ.

٢٢ - تاريخ دمشق: لابن عساكر علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ)
دمشق - ١٩٥١م.

٢٣ - التاريخ الصغير: للبخاري محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ)
تحقيق: محمود إبراهيم زايد - حلب - ١٩٧٧م.

٢٤ - التاريخ الكبير: للبخاري: محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ)
تحقيق: عبد الرحمن المعلمي اليماني - دار المعارف العثمانية - الهند - ١٩٦٤م.

٢٥ - تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى ابن الحسن الأشعري: لابن عساكر علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ) - دمشق ١٣٤٧هـ.

٢٦ - تتمة المختصر في أخبار البشر: لابن الوردي عمر بن المظفر (ت ٧٤٩هـ) - بيروت - ١٩٧٠م.

٢٧ - تذكرة الحفاظ: للذهبي محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)
تحقيق: عبد الرحمن المعلمي اليماني - حيدر آباد - الهند - ١٣٧٧هـ.

٢٨ - ترتيب المدارك: للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ)
تحقيق: أحمد بن بكير - بيروت.

٢٩ - تقريب التهذيب: لابن حجر أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)
تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف - القاهرة - ١٣٨٠هـ.

٣٠ - تهذيب الأسماء واللغات للنووي: يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ)
القاهرة.

٣١ - تهذيب التهذيب: لابن حجر أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)
حيدر آباد الدكن - ١٣٢٥هـ.
٣٢ - الجرح والتعديل: لابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد (ت٣٢٧هـ)
تحقيق: عبد الرحمن المعلمي اليماني - حيدر آباد - ١٣٧٣هـ.
٣٣ - جمهرة أنساب العرب: لابن حزم علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ)
تحقيق: عبد السلام هارون - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٢م.
٣٤ - جمهرة نسب قريش وأخبارها: للزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ)
تحقيق: محمود شاكر - القاهرة.
٣٥ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم الأصبهاني أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠هـ) - القاهرة - ١٩٣٨م.
٣٦ - خلاصة تذهيب الكمال: للخزرجي أحمد بن عبد الله (ت ٩٢٣هـ)
بولاق - ١٣٠١هـ.
٣٧ - دول الإسلام: للذهبي محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)
تحقيق: فهيم شلتوت - القاهرة - ١٩٤٧م.
٣٨ - الرسالة المستطرفة: للكتاني محمد بن جعفر (ت ١٣٤٥هـ)
دمشق - ١٣٨٣هـ.
٣٩ - سير أعلام النبلاء: للذهبي محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)
تحقيق: شعيب الأرناؤوط - بيروت - ١٩٨١م.
٤٠ - شذرات الذهب: لابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ)
القدسي - القاهرة - ١٣٥٠هـ.

٤١ - صفة الصفوة: لابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)
حيدر آباد - الهند - ١٣٥٥هـ.

٤٢ - طبقات الفقهاء: للشيرازي إبراهيم بن علي (ت ٤٧٦هـ)
تحقيق: إحسان عباس - بيروت ١٩٧٨م.

٤٣ - طبقات القراء: لابن الجزري أبي الخير محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ)
عني بنشره ج. باجستراسر - القاهرة - ١٣٥١هـ.

٤٤ - طبقات القراء: للذهبي محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)
تحقيق: محمد سيد جاد الحق - القاهرة - ١٩٦٧م.

٤٥ - الطبقات الكبرى: لمحمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) - دار صادر - بيروت - تحقيق: إحسان عباس - ١٩٦٠م.

٤٦ - الفهرست: لابن النديم محمد بن إسحاق (ت ٣٤٨هـ)
ليبسك - ١٨٧١م.

٤٧ - الكامل في التاريخ: لابن الأثير علي بن محمد عز الدين (ت ٦٣٠هـ) - تحقيق: إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٩٦٠م.

٤٨ - اللباب في تهذيب الأنساب: لابن الأثير علي بن محمد عز الدين (ت ٦٣٠هـ) - القدسي - القاهرة ١٣٥٦هـ - ١٣٦٩هـ.

٤٩ - المختصر في أخبار البشر: لأبي الفداء إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ)
دار المعارف - القاهرة - ١٩٩٥م.

٥٠ - مرآة الجنان: لليافعي عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ)
حيدر آباد - ١٣٣٩هـ.

٥١ - المعارف: لابن قتيبة عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)
تحقيق: ثروت عكاشة - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٥م.
٥٢ - معجم البلدان: لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)
دار صادر - بيروت.
٥٣ - المعرفة والتاريخ: للفسوي يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ)
تحقيق: أكرم ضياء العمري - بيروت سنة ١٩٨١م.
٥٤ - نسب قريش: للزبيري مصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ)
تحقيق: ليفي بروفنسال - دار المعارف - القاهرة - ١٩٩٢م.
٥٥ - نكت الهميان في نكت العميان: للصفدي خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ) - تحقيق: أحمد زكي - القاهرة - ١٩١١م.
٥٦ - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب: للقلقشندي أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) - تحقيق: إبراهيم الأبياري - القاهرة - ١٩٥٨م.
٥٧ - الوافي بالوفيات: للصفدي خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ)
بيروت - ١٩٨٠م.
٥٨ - وفيات الأعيان: لابن خلكان أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ)
تحقيق: إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٩٨٧م.

فهرس الكتاب

اسم الموضوع	رقم الصفحة
١ - مولد النبي ﷺ	٥
٢ - نسب النبي ﷺ	٩
٣ - نسبه الشريف من جهة أمه وزواجها بأبيه	١١
٤ - رضاعة النبي ﷺ	١٢
٥ - إخوته ﷺ في الرضاع	١٥
٦ - حواضنه ﷺ	١٦
٧ - حادثة شق صدره الشريف ﷺ	١٩
٨ - ختان الرسول ﷺ	٢١
٩ - عودته لأمه بعد تمام الرضاعة ﷺ	٢٤
١٠ - أعمامه وعماته ﷺ	٢٦
١١ - وفاة عبد المطلب جدّ النبي ﷺ	٢٧
١٢ - كفالة أبي طالب عم النبي ﷺ	٢٩
١٣ - سفره إلى الشام مع عمه أبو طالب وهي الرحلة الأولى له ﷺ	٣٠
١٤ - بحيرى الراهب	٣١
١٥ - حرب الفجار	٣٣
١٦ - حلف الفضول	٣٥
١٧ - تجارته ﷺ وسفره إلى الشام	٤٠
١٨ - زواج الرسول الأعظم بالسيدة خديجة بنت خويلد	٤٢
١٩ - من وفاء الرسول ﷺ	٤٥

اسم الموضوع	رقم الصفحة

اسم الموضوع	رقم الصفحة

اسم الموضوع	رقم الصفحة
٥٦ - رسل رسول الله ﷺ إلى الملوك بعد صلح الحديبية	١٤٣
٥٧ - نفسية الرسول قبل الهجرة	١٤٦
٥٨ - قريش وحادث الإسراء	١٤٩
٥٩ - النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل	١٥٢
٦٠ - فتح مكة المشرفة	١٥٣
٦١ - غزوات النبي ﷺ أسباب الغزوات ومشروعية القتال	١٥٧
٦٢ - غزوة حنين	١٥٩
٦٣ - غزوة تبوك	١٦٠
٦٤ - غزوة خيبر في أول السنة السابعة للهجرة - فتح فدك	١٦١
٦٥ - رجوع بقية مهاجري الحبشة إلى المدينة	١٦٢
٦٦ - عمرة القضاء	١٦٣
٦٧ - سرية مؤتة	١٦٤
٦٨ - طرف من أخلاق الرسول وشمائله للتحية والقدوة	١٦٥
٦٩ - الصلاة	١٦٩
٧٠ - الصوم	١٧٠
٧١ - الزكاة	١٧١
٧٢ - فريضة الحج	١٧٢
٧٣ - حياة الرسول ﷺ في المدينة في عشر سنين	١٧٣
٧٤ - حجة الوداع	١٧٥